حكاية العربي الأخير" لواسيني الأعرج
مقاربة في النص والخطاب

د. حامد أحمد محمد حامد الشيمي

مدرس الدراسات الأدبية. كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

الإستشهاد المرجعى:

حامد أحمد محمد حامد الشيمي (٢٠٢٠): حكاية العربي الأخير لواسيني الأعرج مقاربة في النص والخطاب، حولية كلية الآداب، جامعة بني سويف، مج ٩ . ـ ٧٣ : ١٩١

مستخلص:

هذه مقاربة لرواية "٢٠٨٤، حكاية العربي الأخير" للكاتب الجزائري واسيني الأعرج، وهي عمل داخل ضمن كتابات استشراف المستقبل. تقدم وفق رؤيتها نبوءات مستقبلية عن مصير المنطقة العربية المنتظر من خلال قضايا أنطولوجية تخص القومية والعرق والعلاقة بالآخر. ومنطلقات هذه الدراسة تتحدد في النقاط الآتية:

ما الاستراتيجية البنيوية التي تبنتها الرواية لتوضيح العلاقة بين العربي والآخر؟ ثم ما الرؤية التي تبناها الكاتب، وما موقعها بين اليوتوبي والديتسوبي، وما أثر خطابها في الوسط الثقافي إيجابا وسلبا؟ وما أنساقه الإيجابية والسلبية المضمرة؟ ثم ما الذي يفيده المتلقي من مغامرة الرؤية التنبئية؟

وإذا كانت الديستوبية الكابوسية هي ما يغلب على رؤية الكاتب فهل كان ذلك أحد آثار وقوع الكاتب في منطقة التأثر بسلفه جورج أورويل الذي سبق له أن خاض المغامرة التنبئية ذاتها عبر روايته ١٩٨٤، أو أن الرواية في كابوسيتها لم تغامر بعيدا عما ينذر به الراهن وحققت توازياتها مع الواقع؟

وإدراكا لهذه التساؤلات تطمح الدراسة إلى مقاربة للرواية في بعديها النصي الجمالي، والخارجي الثقافي، من خلال عرض أهم الثنائيات المتضادة والمتصارعة داخل الرواية لتفكيك بنيتها، ثم تركيز الرؤية الخاصة من خلال أنساق الخطاب لتوضيح أهم مخرجاتها الثقافية.

الكلمات المفتاحية: رواية- ثنائيات ضدية- خطاب- أيديولوجيا- قوميات- يوتوبي- ديستوبي.

Abstract:

This is an approach to the novel '2084, The Tale of the Last Arabic' by Algerian writer Wassini Al-Araj, a novel included in the writings of predicting the future, According to its vision, it presents future predictions about the fate of the Arab region, through issues related to nationalism, race and relationship with the other. The starting points of this study are determined by the following points:

According to its vision, it offers future expectations about the future fate of the Arab region,

What structural strategy has the novel adopted to clarify the relationship between the Arab and the other? Then what is the vision adopted by the writer, what is its position between Utopia and Dytsoubi, what is the impact of its speech in the cultural milieu, positively and negatively? What benefits the recipient from predictive vision? If the vision is a dystopia, is it because of the influence of the former writer George Orwell and his predictive novel 1984 on the writer Wassini al-Araj?

To answer these questions, this study provides an approach to the novel in its aesthetic and external cultural aspects, by displaying the most important Binary Opposition within the novel to dismantle the structure of the novel, and then by focusing the special vision through the patterns of the discourse to illustrate the most important cultural discourses of the novel.

Keywords: Novel- Binary Opposition- Discourse- Ideology- Nationalist-Yotopia- Dystopia

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاما دائمين على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد. فهذه مقاربة لرواية "٢٠٨٤، حكاية العربي الأخير" للكاتب الجزائري واسيني الأعرج، وهي عمل داخل ضمن كتابات استشراف المستقبل؛ ذلك الخط من الكتابات الذي ذاع في الرواية العربية على يد كتاب كثيرين، من بينهم: أحمد خالد توفيق "يوتوبيا"٢٠٠٨، وعز الدين ميهوبي"اعترافات أسكرام"٢٠٠٨، وصبحي فحماوي"الإسكندرية٢٠٥٠" ٢٠٠٩، وعز الدين شكري" باب الخروج"٢٠١٢، ومحمد ربيع "عطارد" ٢٠١٥، وغيرهم .

ولعل ذيوع هذا اللون من الكتابات الروائية يقف وراءه اطراد التساؤلات حول المصير خاصة بعد تقلبات أصابت الأمة إثر ثورات الربيع العربي، حيث تبارى الكتاب كل يقدم رؤيته لمستقبل الأمة، يوتوبية متفائلة كانت أو ديستوبية كابوسية.

ومن هنا تكتسب الدراسة حيويتها من حيوية الخط الإبداعي ذاته وانتشاره بين الكتّاب، ثم تتأكد هذه الحيوية بالثقل الذي يمثله كاتب بقامة واسيني، والهم الذي تحمله

الرواية ذاتها؛ وهي في نتاج الكاتب الرواية التي خرجت عن الجزائر فضاء لتتناول العرب جميعا من خلال قضايا أنطولوجية تخص القومية والعرق ذاته عبر نبوءات مستقبلية تخط وفق رؤيتها مسارا تراه إجابة عن سؤال المصير.

إنها رواية لا تستمد قيمتها من عمق التاريخ ولا من حديث الراهن بل من مغامرة المستقبل واكتناه المسكوت عنه، وإن كانت تفيد من لحظتَيِ الماضي والراهن في الوقت عينه ولكن بالقدر الذي تفتح به نافذة صوب المستقبل.

ولأن روايتنا فيما أرى وليدة لحظة تحولات أيديولوجية وسياسية وثقافية تمر بها البيئات العربية في مرحلة أراها من أهم مراحل تشكل وعي جديد فردي وقومي بقضايا حيوية كالحرية والمواطنة والذات والآخر والهيمنة وغيرها– فإن ثمة تساؤلات تظل تدور حول رواية تعنى بهذا الجانب، لعل منها:

هل تتخذ الرواية طريق تفكيك بنى العقل العربي وتعميق وعيه بذاته أولا ثم تحرير العلاقة بينه وبين الآخر ثانيا؟ أو أنها تَحْمل إخفاقات الذات العربية على وجود الآخر واستشراء أطماعه الإمبريالية؟ وهل يُشكِّل هذان المساران دافعا يدفع بالكاتب إلى المغامرة مستقبلا؟ وهل ثمة مدى سيتحرك فيه العرب وفق الرواية خلال الأعوام التالية من الآن وحتى بلوغ التاريخ التنبئي المذكور ٢٠٨٤؟ هل ثمة ما يبشر مما ينتظر العرب مستقبلا؟ هل ينصهر الكيان العربي مستقبلا في حوار حضاري بناء؟ وهل ثمة ما يمكن أن ندعوه عبر الرواية تأسيسا لسياق رفض عربي للوضع الإقليمي والمنعطف الحضاري؟ ثم ما عسى أن يفيده المتلقي من المغامرة بالرؤية في آفاق مستقبلية؟

وبناء على هذه الأسئلة تنفتح هذه الدراسة على عدد من التساؤلات تمثل منطلقات لها؛ لعل أجلاها: ما الاستراتيجية البنيوية التي تبنتها الرواية لتمحيض العلاقة بين العربي والآخر؟ ثم ما الرؤية التي تبناها الكاتب، وما موقعها بين اليوتوبي والديتسوبي، وما أثر خطابها في الوسط الثقافي إيجابا وسلبا؟ وما أنساقه الإيجابية والسلبية المضمرة؟

وإذا كانت الكابوسية الديستوبية ملمحا غالبا على الرؤية فهل ذلك أحد آثار وقوع الكاتب في منطقة التأثر بسلفه جورج أورويل، الذي سبق أن خاض المغامرة التنبئية ذاتها وقدم روايته "١٩٨٤" وكان توقيت كتابتها أربعينيات القرن المنصرم، أو أن الرواية في كابوسيتها لم تغامر بعيدا عما ينذر به الراهن وحققت توازياتها مع الواقع؟

وهذه القضية الأخيرة: قضية تعالق الروايتين عبر الرؤية تفرض نفسها ابتداء من حيث إن الروايتين هما روايتا استشراف بالنسبة للتوقيت الذي كتبتا فيه.

وإدراكا لهذه التساؤلات تطمح الدراسة إلى مقاربة الرواية في بعديها النصي الجمالي، والخارجي الثقافي، عبر تفكيك أهم مسارات الرواية التي تلتقي عندها ثنائية العربي×الآخر: آدم×ليتل بروز، تلك التي تجتمع حولها مصائر الشخوص وتتضح عندها رؤية الكاتب، وذلك بالاطمئنان إلى أهم الثنائيات المتضادة والمتصارعة داخل الرواية استراتيجيةَ تفكيك لبِنَى الرواية، ثم تركيز الرؤية الخاصة عبر أنساق الخطاب لتبين أهم مخرجات الرواية الثقافية.

ومن الحق أن عمل واسيني هنا يحفز على الوقوف على أعمال الاستشراف جميعا لدراسة خطابها الثقافي، والنظر في تداولياتها بين القراء، وفي السياق السوسيوثقافي المؤدي إلى استشرائها، في ظل بروز سؤال المصير بعد اتساع رقعة الالتقاءات الاجتماعية على الميديا الحديثة. وهو ما ترجى متابعته في دراسة مستقلة أخرى. والله من وراء القصد

تمهيد

تأسيس أول:

الثنائيات الضدية استراتيجية نصية

تقدم أن "العربي الأخير" رواية استشراف مستقبلي. وحدثها الذي تنهض عليه يتركز في إقدام بطلها العربي الأخير آدم على صناعة قنبلة نووية تسمى "البوكيت بومب"، وهي قنبلة منزوعة الآثار التدميرية التي شوهدت بنجازاكي وهيروشيما، وهذا هو مناط السبق العلمي الذي أوصل صاحبه إلى حيازة نوبل في الفيزياء. ويتم هذا الحدث بقلعة أميروبا وهي حامية أمريكية أوروبية تقع بصحراء العرب بين الخليج العربي والبحر الأحمر حيث تتنبأ الرواية بذهاب دولة العرب واحتلال أميروبا هذه المنطقة والإشراف على منابع النفط فيها.

وهي بعد رواية تحولات مكان وتباين أيديولوجيات وتصادم حضارات في مساحة ما يسمح به الكيان العربي الممزق من تصادم! وقد بناها الكاتب بهندسة فنية تنهض على توازيات دلالية وهندسة شكلية بيّنة؛ حيث تعارض العربي مع الغربي عبر آدم

وليتل بروز قائد أميروبا العسكري المتسلط، وستسمح الرواية بالتقابل البين في إعداداتهما وأيديولوجياتهما، وفيما سوى هاتين الشخصيتين سنرى أن ثمة توازيات أخرى: فأمايا زوج آدم تمثل ماضيه وإيفا عشيقته تمثل الحاضر، وآدم وسيف كلاهما ابن لجامعة بنسلفانيا: الأول مثل إيجابية العلم والآخر مثل أضراره، وقنبلة آدم قنبلتان، ثم ستأتي تجارب آدم بنتائج إيجابية لإحداهما من حيث آثارها غير الإنسانية وتشذ الأخرى عن التجربة، بما سيسمح بتعارض موقفين متوازيين تجاهها كذلك، فوق أن التذبذب بين المتعارضَين كان سياقا عاشه "آدم" بطل الأحداث وشقيت به روحه، وعاشه "بروز" كذلك في علاقته بآدم بين الاعتراف به وإنكاره، وفي الرواية تتعارض المصائر بين آرابيا"العرب"، وأميروبا، ثم بين أميروبا والتنظيم الإسلامي المتطرف، ثم بين آرابيا وأزاريا"إسرائيل"، وسنلاحظ أننا بإزاء تشرذم هو من نصيب العرب وتكتل هو من نصيب الفيدراليات الغربية والشرقية: أميروبا وإيروشينا. بل يمكن عد القسمة الرباعية العادلة لفصولها جميعا باستثناء فصلها الأخير أثرا من آثار هذه الهندسة كذلك(١).

على كلٍّ يشجع هذا التوازي الذي يبدو استراتيجية بناء هنا على اتخاذ إجراء الثنائيات الدلالية المتضادة Binary Opposition مدخلا للكشف عن تشابكات البنية وتقاطعاتها، ثم ستُستثمر مخرجاتُهُ في إظهار أبعاد النص الرؤيوية والنظر في أنساق خطابه. وفي تقريب مفهوم الثنائية يقول المعجم الفلسفي: "الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين. والثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها.."(٢).

وفي ظني أن فكرة الثنائيات هي من أهم ما التفتت إليه البنيوية في رحلة بحثها عن التشابكات التي تحكم بنية العالم ونرى مردوداتها على بنية اللغة وشبكة النص. ولربما كانت استراتيجية الثنائيات مؤهلة للارتباط بالألسنية ابتداء؛ من حيث تواطؤهما على فكرة الاختلافDifference التي تحكم العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول بداية، وهو المبدأ- الاختلاف- ذاته الذي يتنامى في الفكر الألسني بطرح فكرة التزامنيSynchronic والتعاقبيDiachronic، والمحور التركيبيSyntagmatic والإحلاليParadigmatic لا سيما لدى رومان ياكوبسون(٣).

ثم تترسخ فكرة الاختلاف في الاستراتيجية البنيوية بمختلف اتجاهاتها؛ خاصة في فكر شتراوس الذي اعتمد عليها في تفكيك البنى الأنثروبولوجية مرتئيا أن" هذه التناقضات الأساسية تختبئ وراء أشكال التعبير الثقافي للمجتمع، لا سيما في الأساطير"(٤)، وعلاقة التضاد لديه إحدى علاقات ما اصطَلح عليه بمنطق المجسداتLogic of the concrete الذي عنى به" نظم المفاهيم التي تمكن الناس من التفكير وفي تنظيم صور العالم في أذهانهم"(٥). وإذا كانت الضدية صالحة ضمن مدخل شتراوس البنيوي الأنثروبولوجي فقد كانت صالحة كذلك لمدخل جريماس المبني على المربع السميائي Semiotic square، الذي ينظر إلى حركة البنية الدلالية عبر علاقات التضاد والتناقض والتضمين(٦).

والبنيوية باختلاف أطيافها حين تعتمد استراتيجية الثنائية الضدية رابطا بين أطراف بنائية، فإنها تتواءم وطبائع الأشياء وسنن الكون التي تعد الثنائية سواء

تعارضت أقطابها أم تكاملت هي هيكلها البنائي مذ كان ذكر وأنثى، وضعف وقوة، وموت وحياة.. أي أن البنيوية لم تخترع هذا النظام اختراعا فهو نظام حياتي وسنن كوني، ولأنه كذلك فقد التفتت إلى وجوده نظرات تسبق البنيوية عربية وغير عربية، لغوية وفلسفية، وإن كان البنيويون ومن أعقبهم من التفكيكيين– على اختلاف في التوجه والغاية– هم أبرز من أَوْلاها اهتماما ورآها نظاما كاملا لا أجزاء جمالية أو حلى لفظية تختزل في التضاد أو الطباق. وإن لم نعدم في فكر بعض المتقدمين شمولية الرؤية أيضا؛ من حيث إن قضية الثنائية الضدية هي فكر فلسفي يمسك بمفاصلَ ظاهرةٍ من الحياة الدنيا قبل أن تكون آلية لغوية تمسك هيكيلة النص، وهذا الجاحظ في "الحيوان" وتحت باب أقسام الكائنات يقسم العالم إلى" ثلاثة أنحاء: متفق، ومختلف، ومتضاد؛ وكلها في جملة القول جماد ونام. وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة، أن يقال: نام وغير نام"[٧]، ثم راح ينظر إلى الموجودات من منظور هذه الثنائية: نام وغير نام[٨].

وفي تتبع هذه الآلية داخل جهود الأوائل ووقوعها في الفكر البلاغي العربي تحت مصطلحات التضاد والتكافؤ والطباق والمقابلة والتطبيق.. ابتعاد عن غاية الدراسة، وقد كشفت عن كثير منها "سمر الديوب" خلال مستهل دراستها الثنائيات الضدية في الشعر العربي القديم. وربما كان الأَولى هنا الإشارة إلى أن توظيفنا الثنائية الضدية للكشف عن استراتيجية بنية الرواية وصولا إلى استنباط بعض أنساق الخطاب عنها هو توظيف يعتضد بالفكر البنيوي في ملاحظته التشابكات البنيوية المشكِّلة للبنية الكبرى، وهو في

الوقت ذاته يبتعد عن فكر ما بعد البنيوية خاصة التفكيكيين في نظرتهم الخاصة لقضية التعالق بين الضدين، كالحضور والغياب، والظاهر والمضمر، والدال والمدلول، وبناؤهم عليها أفكارا تخدم فلسفتهم الخاصة في التقويض كإساءة القراءة وإرجاء المعنى.

وتبقى ههنا إشارة أخرى تخص سؤال الجدوى؛ جدوى الاستعانة بهذه الآلية وإجرائها على الرواية محل الدراسة، ويجدر التأكيد من جديد على أن تبني آلية الثنائية الضدية في الكشف عن استراتيجية بناء الرواية لم يكن بالأمر المفروض عليها، إذ إن الهندسة البنائية المشار إليها آنفا كانت مما عزز هذا المدخل، وسؤال الجدوى هنا يردنا إلى الحديث عن الثنائيات من حيث مدى عطائها في ذاتها بداية.

وزيادة على ما سبق تقريره من أن فكرة التضاد ذاتها مما تستعين به البنى النصية بعامة فإنه لا يخفى ما في هذه الآلية من ميزات واقعة فيما أرى على مقدرتها على التشقيق والاختزال في الآن ذاته: فبها يمكن للناقد تشقيق العمل بتوزيعه على أهم الأقطاب المفصلية في سيرورته البنائية، بغرض الكشف عن توازيات المكونات داخل الشبكات الدلالية، وهو بهذا يتمكن- عبر جمعها تحت أنساق أو مخرجات- من اختزال هذه المكونات لاحقا إلى بنية حاكمة للعمل، ثم إنها تمكن كذلك من الدوران حول الثنائية من غير منظور ليكشف عن التقاءاتها وتعارضاتها على أكثر من محور؛ وهي بهذا تغني الدلالة التي ربما لم تكن لتتضح لو لم يتح للناقد وضع الأمر ضمن ثنائية بعينها والدوران حولها لإغنائها بالتفتيش المتأني عن محاور التقاء أقطابها، زيادة على

أنها لا تعزل النص عن محيطه الخارجي؛ إذ هي ابتداء بنت المجتمع وسنة من سننه قبل أن تُتخذ آلية لمقاربة الأدب والفكر والثقافة، تفلسف الرؤية وتعمق وجود النسق.

فوق أنها مرنة من حيث لا تقف عند حد التضاد الكاملOpposition بين القطبين، بل تتسع لدلالات التناقضContradiction كذلك، ولا تشتط في ضرورة أن يكون المتضادان متنافرين بل تسمح لقطبيها بالتكامل في الدلالة الكبرى رغم ما يبدو بينهما من ظاهر التعارض، وهذا أمر مفهوم بداهة من سياق التضاد عموما، وهي بهذا متوافقة كذلك مع سنن الحياة الدنيا؛ إذ لا يحول التعارض بين وقوع التكامل بين القطبين كتكامل الذكر والأنثى والليل والنهار ونحو ذلك، ثم من حيث عدم اشتراطها حضور القطبين معا في النص؛ إذ يكثر أن يتمتع أحد القطبين بميزة الغيابAbsence، لكنه الغياب اللفظي الذي لا يحول دون الحضور المنطقيPresence أو" الوجود الافتراضي، فعلى سبيل المثال يمكن أن يقال إن مصطلح الموت" يعني غياب الحياة"[٩]. ومعنى هذا أنها باب كبير من أبواب الاستدلال على الغائب وتأطير أفق توقع له؛ وهذا يمنحها قيمة أخرى منظورا إليها من زاوية التلقي، فهي باب كبير من أبواب الانفتاح على آفاق التوقع، أو "تنشيط الذهن" إذا استعرنا تعبير القدماء عن أهم جماليات التضاد، من ناحية الكشف عما يجمع المتقابلين من دلالة، ويعظم هذا الدور في الثنائيات التي يغيب فيها أحد القطبين. ثم إنها تملك بذلك أثرا بالغا في المتلقي حين يعمق كل من القطبين مدلول الآخر ويوسع من دائرته الدلالية، وهو المعبر عنه بأن "الضد يظهر حسنه بالضد" في المدونة البلاغية العربية،

أو أن" فكرة ما لا تكون واضحة إلا إذا استطعنا أن نضعها داخل نظام المتضادات" بتعبير الناقد الحديث(١٠)، ومن مجموع هذه الدوائر الدلالية ستتشكل البنية نهاية، وهو ما يدفع بالتضاد شوطا بعيدا عن الدور الجمالي الجزئي.

وهذه الإمكانات هي ما تحاول المقاربة استثمارها هنا، وسنكون من هذه الاستراتيجية إزاء بنية جدلية تنهض على عوامل وعوامل مضادة في كشف بنية الرواية الجمالية وتقاطبات الرؤية، بالقدر الذي يسمح به النص وبقصد ينأى عن التكلف.

استراتيجية الخطاب

إذا كانت مقاربة الثنائيات الضدية قد اتُّخذت إجراء لكشف استراتيجية الرواية الجمالية، فإن مخرجاتها ستشي بأنساق رؤيوية تفضي بنا إلى ضرورة مغادرة الجمالي إلى الثقافي، وساعتئذ ينهض مصطلح "خطاب" مستعينا بأهم البؤر الدلالية التي صقلتها الثنائيات ليكشف عن الأنساق التي ربما سرت تحتها واستعانت بها.

وإذا كان مصطلح الثنائيات يتمتع بشيء من الثبات فإن مصطلح الخطابDiscourse من المصطلحات التي لم تحظ بهذا الحظ، فهو تارة مستخدم بمعنى الجملة وتارة بمعنى النص وتارة ثالثة بمعنى ما هو خارج عن النص؛ ذلك أنه يبدأ –باختصار واختزال– رحلته في الفكر النقدي الحديث مع لسانيات هاريس وبنفينست ودايك وينتقل إلى السرديات عبر تودوروف وجينيت وغيرهما فيقع ثاني اثنين: النص والخطاب أو ثالث ثلاثة: النص، القصة، الخطاب. ثم تستعين به من بعد حركات ما بعد الحداثة ضمن جهازها النقدي، ولديها يبلغ ما لم يبلغه في حقليه الأولين

من الاتساع حين وُظف كاشفا عن الرسائل المتخفية لا تحت النص فحسب بل تحت سياقات مجتمعية تمثل الثقافة والأدب أهم تجلياتها، نعني بذلك أبعاد الخطاب في فهم نقاد أدب ما بعد الاستعمار: إدوارد سعيد، وهومي بابا، وجياتري سبيفاك في قراءتهم الأنساق المضمرة والتنديد بالخطابات المرسلة لا سيما تجاه مناطق العالم الثالث. أو حين يستعين به "ميشيل فوكو" على تفكيك حفريات المعرفة والسلطة والذات في مشروعه الفلسفي، ثم "دريدا" من بعد في فلسفة الاختلاف والتأجيل والتفكيك. ثم حين وُظف في الدراسات الثقافية ليعبر عن النسق المضمَر في جهاز الغذامي متأثرا بأفكار سعيد وفوكو وغيرهما من نقاد الدرس الثقافي(١١).

ودون تتبع لهذه الرحلة ومراقبة تحولات المصطلح فيها اتساعا وضيقا حسب المساحة التي يشغلها مع مصطلح "النص"(١٢) يمكننا الاستعانة بالخطاب على أنه مصطلح مقابل للنص؛ حيث يصدق النص على ما هو داخلي لغويا وبنيويا وجماليا في حين يهتم الخطاب بما هو خارجي. وهي مقابلة أراها تتكامل في خدمتها النص، خاصة تلك النصوص التي تتبنى قضايا تشغل المجتمع فكرا وثقافة وُيتنبأ لها بحيز تداولي كبير؛ كالنص محل الدراسة.

ويأتي لصيقا لهذا المصطلح في مقاربتنا مصطلح "النسق"؛ ولعله أهم ما أفرزته حركات ما بعد الحداثة خاصة من الزاوية الثقافية التي تعنينا هنا والتي كانت محط عناية الغذامي في مشروعه الثقافي. ويريد به الغذامي "كل دلالة نسقية مختبئة تحت غطاء الجمالي ومتوسلة بهذا الغطاء لتغرس ما هو غير جمالي في الثقافة"(١٣)، وبهذا

الطرح يدخل المصطلح إلى مقاربتنا هنا مع تحفظ على فكرة خصه بالقبحي وحده، والمصادرة على إمكان وجود أنساق إيجابية مضمرة، إننا نريد بالنسق هنا ما يرسخه النص في الوعي الثقافي الجمعي أو الفردي بطريق غير مباشرة عبر رسائله البارزة المؤثرة، وهو بهذا ليس وقفا على القبحي فقط. وهو التعديل الذي أجرته دراسات ثقافية عربية على مشروع الغذامي مثلها غالبا عبد القادر الرباعي ويوسف عليمات وسعيد علوش ومحمد عابد الجابري وغيرهم(١٤). أي أن أهم ما يعنينا هنا هو أن ثمة رسائل تمررها النصوص أو المؤسسات الثقافية بقصد أو بغير ما قصد لكنها تؤثر في المجتمع سلبا وإيجابا حسب نوع أنساقها الموجهة.

تأسيس ثان:

في ضوء ما سبق من اتخاذ الثنائيات استراتيجية تفكيك وبحث عن البنية يمكن تركيز هيكلية بنية الرواية عبر الجدولة الآتية:

م	مفردات الثنائيات	أنساق شبكة البنية	ترسيم البنية العامة	
			مخرجات شبكة البنية	استخلاص البنية العامة
١	الصواب، الخير، الضمير، الواجب، الانتماء، الدوغمائية، البراجماتية	صدام الأيديولوجيا	انتصار الأفكار والمعتقدات السلبية	أزمة هوية بمستواها الفردي: آدم؛ حيث ذوبان الفرد واستلابه.
٢	السد، الصحراء، القلعة، تلوث مياه السد، نضوب الماء، جفاف الأنهار، النافذة، المدرج، قيد، تحرر	تحولات المكان	غلبة الديتسوبي والقمعي	ثم بمستواها الجمعي حيث افتقاد الوعي الداخلي بقيمة الذات في علاقتها بالآخر أو

٣	التنظيم، أميروبا، آرابيا، أزاريا، نووي، إرهاب، عنصرية، سادية، تشييء، نفعية، سلبية، اللاحوار	تعارض القوميات	افتقاد الحوار الحضاري ووقوع المآلات الدونية على قومية آرابيا	تغييب قوى الآخر له.

وتشير الجدولة السابقة إلى استراتيجية البحث وأهم المحطات التي يتوقف عندها:

١- الانطلاق من مفردات الثنائية التي تمثل أقطابها المتجاذبة، سواء كانت هذه المفردات أشخاصا "آدم وليتل بروز"، أم أعراقا "التنظيم وأميروبا وآرابيا وأزاريا"، أم أشياء وأماكن "القلعة والنافذة".

٢- استخلاص شبكة بنيوية تمثل بؤرا دلالية ونقاط تجميع لهذه الثنائيات المتعددة، وقد أمكن رصدها في بؤر ثلاثة:

تصادم الأيديولوجيا: وهي بؤرة تجمع تحتها تعارض معتقدات الشخوص.

تحولات المكان: وتحتها أهم التغييرات التي لحقت بالمكان وفق الرؤية الاستشرافية التي جاءت الرواية نصا فيها، كتحول المكان العام"آرابيا" نحو الديستوبي الكابوسي، وتحول المكان الخاص"القلعة" نحو القمعي والدوني.

تعارض القوميات: وتحتها يرصد البحث علاقات الآخر بآرابيا، وما كان من تعارضات القوميات الرابضة بمنطقة آرابيا، من صدامات حكمتها النفعية ومآلات دونية كانت من حظ آرابيا.

٣- وتنتهي المرحلة النصية الجمالية بمحاولة تركيز هذه الشبكة البنيوية المؤسسة من هذه البؤر الثلاثة في بنية عامة؛ وهي تتركز على ما يبدو في أزمة هوية تتجلى

بمستواها القومي/آرابيا والفردي/آدم. وهذه البنية هي الراصدة للأفق الاستشرافي الذي يتبناه الكاتب، وعليها سيتأسس الحديث عن أهم الأنساق الثقافية التي تبثها الرواية نهاية.

٤- ستتمثل المحطة الأخيرة في مجاوزة الجمالي النصي إلى التداولي الثقافي، وهذه مرحلة ليست مذكورة بالجدولة السابقة المعنية بالبنية الجمالية النصية، وإن كانت هذه البنية العامة بميلها صوب ما هو كابوسي "انتصار المعتقد السلبي، بروز القمعي، التحول الديستوبي، افتقاد الحوار الحضاري الأممي.." تشي بأنساق الرؤية الثقافية وميلها صوب الديستوبي غالبا، دون المصادرة المسبقة على وجود أنساق إيجابية ربما تتمثل في التحذير ولفت الانتباه قبل وقوع مثل هذه المصائر.

مبحث أول: استراتيجية النص

١- صدام الأيديولوجيا:

يمثل صدام الأيديولوجيا البنية الصغرى الأولى التي نكشف من خلالها عبر الثنائيات التي تستقطبها أهم إعدادات الشخوص الأولى: آدم، أمايا، ليتل بروز، سيف. وهو مقدَّم هنا لأنه مَّثل المنطلق الذي ننطلق منه إلى بنى وثنائيات أخرى؛ من حيث يهيء تفاوت إعدادات هذه الشخوص وتضارب معتقداتها بيئة مناسبة لتصادماتها عبر ثنائيات أخرى قادمة. ولئلا يمتد الحديث عبر تفاصيل مشتتة يمكن تناول هذه الثنائيات عبر حدث الرواية الأهم: صناعة القنبلة؛ إذ أمكن رصد ثلاث ثنائيات متعلقة به: "الصواب والخير" التي قامت على آدم وذاته وتعززت بدخول أمايا إلى المشهد، ثم

"الحيادية والدوغمائية" عبر شخصيتي آدم وسيف، ثم "الإنسانية والنفعية" عبر شخصيتي آدم وبروز.

١/١ ثنائية الصواب والخير

هذه ثنائية تغذيها ثنائية النسبي والمطلق بنسبة ما؛ إذ يفلسفها ويجعل من تقابل قطبيها أمرا مقبولا واردا واقعا فكرة نسبية الصواب أو إطلاقه، فإذا كان الخير يتسم في مقابل الصواب بثبات كبير فإن الأمر يختلف بالنسبة للصواب؛ فكم من صواب فعلناه بما يملي علينا موقعنا الأسري أو الوظيفي أو الحياتي بعامة لكن ربما ترتب عنه الخطأ والشر، ذلك أن ترتب الخير على فعل الصواب – مادام هذا الصواب نسبيا– أمر غير حتمي، وعليه ربما اختلف الصواب النسبي عن الخير المطلق حتى تعارض طريقهما؛ لأن التعارض هنا تهيئه ثنائية المطلق والنسبي ابتداء.

وهي حاضنة لصراع داخل ذات آدم بطل الرواية بين إقدامه على تفعيل البوكيت بومب وإحجامه عنها خشية أن يساء استغلالها؛ أي بين واجبه عالما وواجبه إنسانا، ثم هي حافز تستغله الرواية لتصنع توترا يخرج عن ذات آدم ليشرك زوجه أمايا قطبا حيويا فيه. وإن لم يبلغ التوتر حد الصراع الخارجي؛ نتيجة تغييب أمايا بالموت عن مشهد الحدث الرئيس وتقلص حضورها بين فُرَج تيار الوعي خلال الرواية حيث آدم حبيس أميروبا:

١/١/١ آدم: ثنائية الضمير الأخلاقي والواجب العلمي

محور الثنائية هنا هو آدم نفسه، وفيها يوضع العالم والإنسان قطبين متعارضين، وقد كان منطق الأشياء لا يقول بتعارضهما! ومن ثم فهو ههنا تعارض سياقي تصنعه الرواية:"على الرغم من أن مشروعه PBPp2, PBPu1 كان يشغله كرهان علمي، إلا أنه كان يخيفه... ارتباكه الوحيد كلمة أمايا: هل يمكن تقسيط الموت.."[الرواية: ٢٦٩]، واللفظتان الكاشفتان عن حجم هذا التوتر في النقل السابق: الرهان، والخوف، وهما قطبان يعيدان إنتاج ثنائية الضمير والواجب. فالرهان تحدي العالِم أمام ذاته لإثبات بحثه، والخوف يتعزز بالجانب الخلقي الإنساني فيه من خطورة استغلال هذا البحث العلمي وانحرافه عن مساره، وبين هذين الجانبين يُخلَق سياقٌ من التوتر الذي يعبر عن مبلغه قوله في سياق آخر:" أنا في حالة شبيهة بحالة البين بين. نوبل كان سعيدا بالديناميت لأنها تصلح لتحطيم الجبال وشق الأنفاق... ولكنه رأى الديناميت أصبحت تُرسَل من فوهة مدفع نحو الأماكن الأكثر بعدا، أو تنزل على رؤوس الناس من الطائرات، شعر بوخز في الضمير لا تستطيع الجائزة أن تغير من مسار الأشياء. كان كبيرا وقدم للإنسانية الكثير، لكنه ترك لها ما تحرق به نفسها.. هذه حالتي بالضبط، وربما حالتنا جميعا"[الرواية:٢٨٠]

إن آدم من هذا الموقف موقف القنبلة النووية كأنما هو شخصان لا شخص واحد: فآدم العالم الذي يتخذ من المشروع تحديا علميا يجب تحقيقه، وآدم الإنسان الذي يخشى عواقب هذا النجاح إذا ما استغلت استغلالا خاطئا، وهذا الانشطار الذاتي

والنفسي تتولد عنه لحظة توتر بين إقدام وإحجام تعاني منها الشخصية، والمنطقة التي تقف فيها رهيفة الحد كالشعرة نتيجة التباس المثلين وتقابلهما كالضدين. وستتهيأ ملابسات وضغوط خارجية تعزز جانب العالِم في آدم فيخرج من لحظة التذبذب تلك ويكون تفعيل القنبلة، مقتنعا من منظوره النسبي نهاية بأنه فعل الصواب وقدم سلاحا رادعا ضد مغتالي الإنسانية من أفراد التنظيم(١٥). ولأن الصواب في واقع الرواية لا يخلو من شراك النسبية فإن أمايا سترى صواب زوجها عين الخطأ متوجسة من وخيم العاقبة الذي ينتظر مشروعا كهذا مستقبلا. ويكشف هذه النسبية بين الزوجين النقطة الآتية التي أُتم من خلالها آثار تقابل ثنائية الصواب والخير:

٢/١/١ آدم × أمايا:

يتعزز التوتر الداخلي بين الإقدام والإحجام بظهور شخصية أمايا واشتباكها مع حدث الرواية؛ إذ تتعالق شخصيتها مع مشكلة السلاح النووي من أكثر من زاوية: فهي يابانية؛ ولعل اليابان أن يكون البلد الأكثر كراهية لشراسة هذا السلاح، وهي ناجازاكية حفيدة من افترسهم النووي وشوه خلقهم، ثم هي متخصصة في الطب النووي وعلاج آثار الإشعاع [الرواية:٤٤، ١٣٩] ، وهي بعد ذلك ولإتمام البعد المفارق زوج آدم وحبيبته!

ولذلك فهي " تلعن إمبراطور الجنون، كما تسميه، هيروهيتو الذي سكن قلبه غرور نار الحرب ورفض إعلان بوتسدام، وتلعن الرئيس الأمريكي هاري ترومان الذي أعطى أمر إلقاء القنبلة النووية، وهو لم يستنفد كل الأسباب السلمية".[الرواية:٤٤]

ومن ثم يتشكل معتقد أمايا الكاره لسلاح النووي؛ وهي بهذا مرشحة لأن تصطدم مع آدم مسعى وهدفا، وتكشف حوارات قليلة مستجلبة ضمن وعي شخصية آدم عن هذا التصادم:"

- أريد أن أعرف ما بك يا أمايا

- خياراتك تخيفني

- خياراتك نفسها

- الطب النووي وعلاج الإشعاعات النووية. ماذا أفعل غير إنقاذ بشر تقتلهم أنت.

- يا قلبي.. لا أقتل أحدا. مجرد فكرة لمنع أقوياء هذا العالم من تدمير هذه الأرض.

- النووي سلاح الجريمة بامتياز. قنبلتك أيضا عمياء، كما كل قنابل الدنيا. لن تشذ عن القاعدة.. عندما تنزل من السماء لن تسأل عمن هم على الأرض.

- لو كانت عمياء كما تتصورين لما قبل بها مخبر مكون من علماء لا يريدون إلا الخير للبشرية.

- وهل أوبنهايمر كان يريد الشر يوم قبل الإشراف على البرنامج النووي لمانهاتن؟ يا حبيبي أنا لا أشكك لا في الفكرة ولا في نواياك. الفكرة نبيلة في جوهرها، لكن مؤداها هو المشكل.." [الرواية: ٨٠ و ٨١]

وفي سياق لاحق:" لو رأيت حبيبي، الولادات المشوهة.. والسرطانات بسبب الإشعاعات... لغيرت رأيك. أعرف أن طموحك كبير، وأن رغبتك في خدمة الإنسانية أكبر، لكن لا تلعب مع النووي. أحيانا ألعن أوبنهايمر وكل آباء هذه الاكتشافات الخطيرة.

- مثالية هذه يا أمايا.

- المثالية أحسن من القتل.

- المثالية تقابلها العدمية. تحتاج المثالية إلى أن تتسلح بقليل من الواقع.

- المثالية عندما تتسلح تنتحر وتصبح قاتلة أيضا". [الرواية: ٢٦٨]

والحواران السابقان مختاران من موضعين مختلفين متباعدين من الرواية لنكشف من خلالهما عن ثبات موقف كل من الزوجين تجاه فكرة القنبلة، وخلالهما تبدو محاجة كل منهما لإبراز صواب موقفه، ولأن موقف الزوجة يبدو أقرب إلى منطق الأشياء فإنها وجدت بشأنه كثيرا من الشواهد والحجج:" النووي سلاح الجريمة بامتياز/ قنبلتك عمياء، كما كل قنابل الدنيا/ عندما تنزل من السماء لن تسأل عمن هم على الأرض/ الولادات المشوهة/ السرطانات/المثالية عندما تتسلح تنتحر وتصبح قاتلة.."، في حين تتخذ حجة الزوج غطاء فلسفيا نظريا وتلاعبا بالعبارات:" خياراتك نفسها/ فكرة لمنع أقوياء هذا العالم من تدمير هذه الأرض/ تحتاج المثالية إلى أن تتسلح بقليل من الواقع..".

ويمثل صراع الزوجين الأثر الثاني الناشئ عن الثنائية الأم بعد صراع آدم الذاتي. وبرغم أن هذه الحوارات بين الزوجين لا تفلح في خلق صراع خارجي محتدم سرديا فإنه مؤشر على تعارض موقفين حيويين تجاه حدث الرواية؛ إننا منها بإزاء صراع أفكار في المقام الأول لا صراع صدام شخوص، وبدخول أمايا المشهد يتقوى جانب الخير وتتأكد حجته: "أنتم ترمون قنابلكم الإشعاعية ونحن نداوي من أصيبوا بإشعاعات قنابلكم" [الرواية:١٣٩]، في حين يظل صواب آدم مفتقدا إلى الحجاج المنطقي، ومفتقرا من ثم إلى حسم الأمر فيه من قِبل الشخصية، وهو ما يتم لاحقا حين يُزوِّر ضباط أميروبا رأي أمايا عبر شخصية افتراضية إلكترونية تتحدث باسمها وتوافق آدم على صوابه وتحسم القضية نهاية لصالح تفعيل القنبلة في ظل زيادة وطأة جرائم التنظيم ضد أميروبا وتصدير المشهد على أنه لا رادع للتنظيم سوى سلاح نووي، وكأن القتال قبل قنبلة آدم كان قراعا بالعصي!

ويمكن تلمس نسبية الصواب كذلك في أفعال أخرى جزئية، كخديعة سميث لآدم بشأن أمايا برغم ما بينهما من صداقة، ومتاجرة أطباء أميروبا في أعضاء بشرية زعما أنهم يخدمون العلم والطب، لكنها وقائع لا تستثمر في شحن الرواية بأجواء توتر نفسي مما يعتمل داخل هذه الشخوص، أو في تعميق التعارضات الضدية بين الشخوص من خلالها. [الرواية: ٣١، ٢٧١، ٣٧٤، ٣٩٤، ٤١٩]

٢/١ آدم×الكوربو: صدام المثالية والدوغمائية

الكوربو هو لقب سيف زميل دراسة آدم ببنسلفانيا، ولفظ "الكوربو" منقول عن الفرنسية بمعنى الغراب الأسود؛ وذلك فيما يبدو نتيجة ارتدائه الأسود شعار التنظيم، وهو لفظ موضوع في إطار التسميات الجديدة التي أولعت بها الرواية للإشعار بدوران الوقائع مستقبلا أو متابعة للرواية الأم ١٩٨٤ في ولعها بالتسميات المخترعة المولدة والمنحوتة أيضا. وهي شخصية تنطوي على عدة جوانب سيئة، منها بغضه آدم لتفوقه عليه في دراسة الفيزياء النووية، ومنها ساديته التي مارسها صغيرا حتى تجاه العصافير والقطط! ومنها عقيدته الدموية المنحرفة التي يقدسها إلى حد الإيمان والتعصب، ويوقن أنها –وليس غيرها– سبيل تغيير المسار. وهو بعد زعيم التنظيم الإسلامي الذي هو "داعش" نفسها أو وريثها مستقبلا.

ويتفق الواقع المعيش وواقع الرواية على أن تلك التنظيمات المنحرفة هي من أسرع معاول الهدم المؤدية إلى تآكل الأمة؛ غير أن عقيدة سيف لا ترى هذا، بل وستخالف كل من يراه وترميه بالعداوة للدين وللعروبة وبالموالاة للغرب، وسيكون آدم مرشحا قويا لأن ينال تلك الاتهامات وينتظر عقوباتها على أيدي الكوربو والتنظيم، كما سيكون سيف مرشحا قويا لأن يكون شخصية دوغمائية(Dogmatic) تفرض رأيها بالجدال مرة وبالقوة مرة أخرى. وسنرى أن سياق الرواية يلمح تارة ويصرح أخرى بدخول آدم مع سيف وأمثاله في جدال عقيم بهذا الشأن؛ وهو ما يرهص بتعارض أيديولوجيتين تعارضا شرسا.

وليست الآفة في شخصية سيف في انحراف عقيدته فحسب، بل في أن يحمل غيره على اتباعها، ثم هو لا يكتفي بهذا حتى يُلحقه باعتقاد جازم في حِلِّية التدمير والإبادة والقتل لمن يأبى اتباعه، وعن هذه العقيدة سينافح سيف بعقل مغلق لا يقبل جدالا في الرأي؛ وعلى آدم أن يكون في صف التنظيم، وإلا فقد باع نفسه للغرب وباع عروبته وقوميته بصناعته القنبلة، وهو يحاول أن يقلب لهذا عددا من الحقائق ليبرر بها كراهيته آدم وعلماء جامعة بنسلفانيا، الذين يُحملِّهم في تجاوز بيِّنٍ –بحسب الرواية– مسئولية ما تقوم به الإدارة الأمريكية للمنطقة واستغلالهم إياها، وحين تلجئ آدم الظروف للجدال معه بهذا الشأن لتبيان تهافت موقفه لا يأتي الجدال بجديد؛ إذ ينتصر الجانب الدوغمائي في سيف نهاية؛ كشف عن هذا مهاتفة تليفونية بينهما:" أنا هو الكوربو، صديقك في جامعة بنسلفانيا الذي حورب، لأنه كان مسلما فقط على الرغم من تفوقه في الرياضيات. الكوربو. صديقك الذي فضل أن يبيع حياته للتنظيم، كما تتصور أنت وجماعتك..

– أنت بعت نفسك للوحش الذي فيك وليس شيئا آخر. لم تنفعك الدراسة ولا الرياضة للتخلص منه(...) أنت لم تُحارَب لأنك كنت مسلما، وأنت تعرف ذلك جيدا. نسرين كانت مسلمة وباكستانية واستطاعت أن تنتمي إلى أحد مراكز الأبحاث الصيدلانية. معدلك يا عزيزي كان مهما، لكنه لم يكن كافيا.. تخصص البحث النووي يحتاج إلى تفوق كلي في الفيزياء والكيمياء والرياضيات.

– لم يعد هذا مهما اليوم. كل شيء أسامحك فيه إلا أن تخدمهم بقنبلة، أو تقتل بني جلدتك.

بقي صامتا للحظة تمنى فقط أن يقول إن قنبلة الجيب موجهة ضد الذين محقوا بلدانهم وسلخوا شعوبهم والذين لا يرتدعون إلا بالقوة ككل الفاشيات.." [الرواية: ٣٠٥، ٣٠٦]

إن آدم حين يقيم الحجة على سيف من أن إقصاءه عن الالتحاق بالتخصص في الفيزياء النووية كان عن إخفاق دراسي منه يتهرب هذا الأخير من هذه الحقيقة: "لم يعد هذا مهما اليوم"، ليقف على ناحية أخرى هي قضية قنبلة الجيب والتي يفترق عندها معتقدا الرجلين كذلك؛ حيث يراها سيف خيانة من آدم لبني جلدته في الوقت الذي يُقْدم آدم على إنفاذها تحجيما لخطر السلاح النووي. ورغم أن آدم لا يملك مستقبلا استمرار تلك النوايا الحسنة من قِبل مستخدميها فإننا لا نملك أن نسلم كذلك بصدق نية الكوربو كذلك إذا ما ملك هو صناعتها؛ ذلك أن رفض الكوربو للسلاح النووي لم يكن رفضا للمبدأ كرفض أمايا السابق؛ بل هو رفض لتملك أميروبا مزية هذا السلاح؛ وسيظهر من مضي الرواية قُدما أن التنظيم أكثر دموية وأشد خطرا على آرابيا/العرب حتى من العدو الغربي نفسه.

وسيتجه سيف إلى حصار آدم في مناظرات جدالية بين ثنائيات "العروبة×الغرب، القومية العربية×الاستعمار الغربي، الإسلام×والكفرة"، للتلبيس على آدم وتصدير

المشهد على أنه صراع بين خندقي الكفر والإيمان أو الآخر والعروبة؛ حيث لا عاقل يناصر الخندق الأول. ولأجل ذلك سنراه يكرر عبارة "أبناء جلدتك" إدراكا لهذه الغاية.

كما سيترتب على هذه الأيديولوجيا التي ينطلق منها سيف وتلك الدوغمائية التي يتصف بها الانتقالُ إلى مرحلة الإزاحة؛ إزاحة كل من لم يستجب لعقيدته بالقتل، وسيوظفها الكوربو فرصة سانحة من ناحية أخرى لإخلاء الساحة وتحقيق مطامع دنيوية ومكاسب في حيازة أرض أخرى يسيطر عليها التنظيم، وبهذا ينتقل من الجدال بالقول إلى التعنيف بالقول: "شوف يا قحبة المَارِيكان/المسلمين الكفرة/ستحرقون فيها كالجرذان/كم قبضت على قنبلتك الوسخة"، ثم إلى استخدام العنف بالفعل؛ سيحاول ذلك باختطاف آدم، ثم بقتل رفاقه في صناعة القنبلة، وستتلبس دوغمائيته بسادية منحرفة يمارسها متلذذا حال قتلهم:" ثلاث جثث ملقاة على الأرض، متفحمة كليا تقريبا، وبالقرب منها كتابة كبيرة: هاهو كبيركم الذي علمكم السحر فرانكي دوفوكو... وألفونسو جيروم... وميمون الذي باع نفسه للشيطان، طهرنا خيانته بالنار... التوقيع: الكوربو. التنظيم. ليس بعيدا عنها، ثلاث جثث أخرى، قتيلان لم يمر على قتلهما أكثر من ثلاث ساعات، يتدليان على شجرة لارغن الوحيدة في المكان، كانا بدون هوية، وهما من الرجال الملثمين الذين يَدلُّون على الطريق عادة. بالقرب منهما امرأة مُخَوْزَقة بسيخ ثقيل، دخل من فرجها وخرج من حنجرتها. كتبوا على صدرها المنزوع الثديين وبطنها المفتوح الذي نُزِعَ رَحِمُهُ: هذه قَحْبتكم الجاسوسة، الباحثة في الطبيعة سوزان كليبر نعيدها إليكم كاملة غير منقوصة إلا من ثدييها لكي لا ترضع لقيطا يأتي هنا ليعيث فسادا في

أرضنا، ورحمها لكي لا يحمل بخنزير يدخل البلاد وكأنها زريبة..التوقيع: الكوربو. التنظيم" [الرواية:٢٣٢، ٢٣٣]

وسنراه عقب قتله سميث رفيق آدم يتوعد آدم في حرب نفسية خانقة يضرب أطنابها من حوله:" أرأيت يا صديقي؟ الكوربو. الغراب الأسود يضرب في القلب وقت ما يشاء. يضرب ما له تمثيل رمزي قوي. شريكك في قنبلة الموت انتهى.. انتظر دورك."[الرواية:٣٧٧]

وستطلق هذه الأيديولوجيا أصحابها بنفوس متعطشة للدماء لتبني وجودها على لاوعي الناس وغفلتهم وجهلهم بقواعد الجهاد ورخصه وموانعه: "أصبح التنظيم معروفا بتوقيعاته على أجساد الضحايا بوضع علامة الصليب على صدر المقتول والكتابة تحتها: التنظيم. وآية قرآنية: وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ".[الرواية: ١٥٥، والآية من سورة الأنفال:٦٠]

وبهذا يُؤدلَج الدين وتؤول آياته تأويلا مذهبيا لا يخدم الدين بقدر ما يحسب عليه(١٦).

على أن آدم لا تتزعزع عقيدته التي يعتقد تجاه الكوربو والتنظيم، ولا تنطلي عليه سفسطائية الجدال عبر مقارنات سيف؛ ويدرك أن الثنائية الحقيقية هي ثنائية التنظيم وأميروبا، وإذا كانت أميروبا يصح أن ترادف الغرب والاستعمار.. في الثنائيات التي تجري على لسان الكوربو فإن التنظيم المنحرف لا يرادف بحال الإسلام في شيء وليس

هو العرب ولا يمثل لهم قومية بصورة من الصور. يدرك آدم هذا ويدرك أن الكوربو لا يتحرك باسم القومية بل يرغب بإعادة توزيع المنطقة وتشكيلها وفق غاياته هو لا أكثر، وهو لقاءَ ذلك يستحل كل شيء، يُقتّل العرب ويبيع نفطهم ويتجر في أعضائهم مقابل نفوذ وأموال ومقايضات دنيئة:" الكوربو نفسه هو المشرف على هذا التجمع السري الذي يدر على التنظيم مالا كثيرا. هل يعقل أن يكون الكوربو مشرفا على هذا الكارتيل من اللحم البشري؟ الكثير ممن يعرفون المنطقة يؤكدون أنه هو أيضا من يشرف على بيع النفط، في بعض مناطق آرابيا التي يسيطر عليها" [الرواية:٣٥٢]

تلك هي عقيدة آدم التي يواجه بها الحصار النفسي الجدلي الذي تضربه شخصية سيف من حوله، وإذا كان آدم تتردد ذاته بين إقدام وإحجام بشأن القنبلة على ما مر بنا فإنه ذو عقيدة ثابتة بشأن الموقف من الكوربو، لا ينخدع بحقيقة إرهابه ولا يحصر مبرارت وجوده فقط في وجود أميروبا أو غيرها بالمنطقة؛ بل يرده التعمق في القضية إلى أنها نتاج منطقي لانحرافات وجهل:"عندما يتزوج المال والجهل والتصلب الديني الأعمى الذي يتحول إلى سلاح للقتل، يحدث هذا. سلسلة من القتلة الذين تناموا مع الزمن، ووجدوا ليس فقط من يدعمهم، ولكن من يحولهم إلى قنابل موقوتة ضد أراضيهم".[الرواية: ٢٧٤]

كما يدرك خطر توريط الدين في القضية، لا من حيث ما يرجع على الدين ذاته من تشويه فحسب؛ بل من حيث ستار القداسة الذي يوفره الدين لهؤلاء. ثم التصلب العقدي المؤدلج المبني على المرجعية الدينية، وهو أخطر ألوان التعصب وأشرسها،

لأنه تطرف يتأسس على اعتقاد أهله في صواب دورهم وقداسة مسعاهم:" الجريمة بالنسبة لهم لا شيء، بل لحظة اختبار للتقرب من الله. بقدر الآلام والصراخ يكون القرب كبيرا، لأنه زرع الرعب في قلب أعداء الله. ليست حالة مرضية ولكنه يقين. وهذا خطأ الغرب. المرض له علاج كيفما كان ويتطور عبر الزمن، اليقين لا شيء يواجهه إلا يقين بديل".[الرواية:٢٧٣]

وعليه وجب أن تكون الحرب الأولى حرب أفكار وعقيدة وتوعية لتزعزع الأيديولوجيات التي يصدرون عنها. ويخطئ من يتعامل مع أمثال هذه القضية على أنها حرب قتل وبسط سيادة فقط؛ إذ هي في المقام الأول حرب أفكار تُطلَق قبل أن يُطلق الرصاص[١٧].

كما لا تنطق عقيدة آدم بتبرئة ساحة الآخر/الغرب كلية عن الموضوع وإلا كانت أيديولوجيته مختلة مجافية لحقائق الواقع؛ يدرك آدم أن :"الإرهاب ليس قدَرًا. تصنيع أيضا، ولا ينشأ من الفراغ. أينما كان الظلم أصبح الإرهاب أكثر الوسائل اختصارا" [الرواية:٢٥٨]

٣/١ آدم × بروز

تمثل ثنائية آدم×بروز ثنائية كبرى ضمن بنية تصادم الأيديولوجيات؛ ذلك أنها كاشفة عن معتقدين مختلفين ونفسيتين متفاوتتين تجاه قضية الانتماء أولا التي مثلت سياقا مهما لسيرورة وقائع الرواية وتَشكُّل رؤيتها نهاية، ثم تجاه حدث الرواية الأبرز: إشكالية السلاح النووي الذي كان مَحكًّا جليا لإبراز تصادم المعتقدين: عقيدة العالِم

وعقيدة الرجل العسكري. وبدهي أن للعالِم سلطانه في مبدأ الأمر: مرحلة إجراء الأبحاث والتصنيع، وهي المرحلة التي مثلت شدا وجذبا داخل ضمير آدم حتى تغلب دوره المهني نهاية، لكن السلاح ساعة يغدو جاهزا للاستخدام فإن دور العالم ينزوي ويتعزز دور العسكري من بعد؛ إذ له في النهاية الأمر بفتح النار أو وقفها حسب ما تمليه واجباته العسكرية غالبا أو تسوله نفسيته غير السوية أحيانا. وهذا الانتقال لا يعد انتقالا من يد إلى أخرى بقدر ما هو انتقال أو تغير من عقيدة إلى أخرى.

وربما لم يكن ثمة إشكالية في ذلك حتى هذه اللحظة؛ لكن الرواية تفلح في تحفيز الإشكال في هذه الزاوية من حيث إن السلاح موضوعَ التقاء الرجلين هو سلاح نووي، ثم إن التجربة كما سيرد لاحقا ستشمل نوعين منه: أحدهما إيجابي والآخر سلبي من حيث مدى خطره الإشعاعي؛ فوق أن شخصية بروز قائد أميروبا هي شخصية إشكالية كذلك تنطوي على عدد من الإعدادات والعقد النفسية التي تؤهله لأن يشتبك مع آدم في تصادمات بهذا الشأن، صدامات في المعتنقات بينهما في المقام الأول، وسيعمق منها السياق الروائي ابتداء باختطاف رجال أميروبا آدم، ثم قيام بروز بتجربة السلاح النووي على أرض عربية ينتمي إليها آدم بحكم القومية، ثم تعمقت على نحو أكثر بتفاصيل روائية وُفقت فيها الرواية إلى حد بعيد عبر نفسية كل من الشخصيتين وإعداداتهما، وهي إعدادات تصف آدم بالكمال غالبا وتقدم بروز شخصا يعاني النقص الجسدي الذي كان له مردوداته النفسية الخبيثة تجاه العرب وتجاه آدم.

من هنا كانت الإشارة إلى ثنائية النقص والكمال بين الشخصيتين إشارة واجبة بداية؛ إذ هي موجه لكثير من السياقات التي تجمع الرجلين كما ستسهم في إبراز الفرق جليا بين معتقديهما كذلك، ولسوف تتأسس عليها ثنائيات أخر ستفرد بمقال في حينها لاحقا.

تقدم الرواية بروز شخصا يعاني نقصا جسديا وتشوها خلقيا إثر حادث بالرمادي /العراق:" حينما التصقت بشاحنتهما سيارة صهريج أودت بحياة الكثير من عساكر الشاحنة، ووالده، بينما أصيب هو بحروق من الدرجة الثالثة في كامل جسده ووجهه، وانتهى الأمر ببتر يده اليسرى ورجله اليمنى. بقي على إثرها في ألمانيا مدة زمنية حتى تم خلالها تأهيله وتعويض العديد من أجزائه بأعضاء اصطناعية، بما في ذلك عضوه التناسلي.. طلب بعدها العودة إلى مكانه، بصعوبة حصل على الموافقة".[الرواية:٢١]

وذلك النقص الجسدي سيبين أثره سريعا على نواحيه النفسية، خاصة بعد أن يحتدم داخله ميولان: ميول البقاء في الخدمة العسكرية لإنفاذ شهوة التسلط الممتلئة بها ذاته على مَن تحته بحسب تقديم الرواية له، ثم الرغبة في التواري عن الأنظار إثر هذا التشوه البدني. وسيجد بروز في التقدم التكنولوجي حلا لذلك، حين يتخذ له غرفة بالقلعة لا يراه فيها أحد في حين يراقب هو عبر الشاشات وأجهزة البث والتجسس المتطورة جدا كل شيء بالقلعة من هذه الغرفة: "..في عمق المثلث الخفي والتقاء الحائطين القديمين يتكوم ليتل بروز.. بحيث يرى الكل، ولا أحد يراه، لا أحد يعرف وجهه إلا الصورة الوحيدة التي سربها صحفي فرنسي كلفته غاليا، سجنا وتعويضا ماليا"[الرواية:١٤]، وهو

بهذه المراقبة وبتلك الشاشات يقترب كثيرا من سلفه "البيج بروذر" ديكتاتور أورويل في ١٩٨٤.

ولن تتمثل الآفة التي تنغص عليه حياته داخل غرفته في فقده رجله أو يده بقدر ما تتجسد بغيضة في فقده عضوه الذكري! فذلك فقد مركب في هذا الحالة؛ لأنه سيمثل من ناحية نقصا ذكوريا منغصا مفضيا إلى آلام نفسية، ثم هو من ناحية أخرى مفض إلى آلام جسدية كلما احتاج إلى التبول! حتى إنه ليحصي على نفسه مرات التبول بالساعات والثواني، فكأن الأمر غدا هاجسا يطارده ويلاحقه بالأرقام! وهو من ناحية ثالثة مثل تحديا نفسيا كبيرا حين هَمَّ أن يتخلص من هذه المنغصات بزراعة عضو ذكري؛ إذ لم يكن متاحا لدى الأطباء في تلك البقاع إلا من جسد آرابي؛ وهو ما تأبَّاه بروز بعنصرية وأنفة!

وبهذا ستتخذ مشكلة النقصان الجسدي أبعادها النفسية البغيضة لدى بروز؛ ولأجل أن الأمرين: الجسدي والنفسي مرتبطان سنرى الكاتب يحسن استدعاء هذه الآلام الجسدية في سياقات إحساس الشخصية بالنقص النفسي؛ من بينها مثلا سياق إحساسه بأنه دون ضباط البحر الأحمر، أو وقوف الضابط سميث بوجهه بعد ترقيه إلى رتبة جنزال؛ إذ حال ذلك دون تسييره بعض الأمور بالقلعة وفق هواه النفسي ومزاجه الشخصي خاصة فيما يتعلق بآدم:"..لكنني مكبل بهذا العقيد الذي رقي إلى رتبة جنرال قبل أيام، وهو ما يضع كل جهودنا في خطر(...) شعر ليتل بروز فجأة بألم حاد في

حوضه.. يشعر بأن مثانته لم تعد قادرة على التحمل وتكاد تنفجر. لعنها بقوة: يلعن(..)" [الرواية: ٣٧١]

أو سياق ظهور الأنثى بالقلعة ممثلة في إيفا: "تنبه إلى رائحة البول الذي تسرب، فعرف أنه لم يضبط الحفاضة جيدا.. فسحبها إلى الأمام، حتى يغطي على الرائحة الحادة، ثم عطر المكان الذي يشبه غرف حفظ الجثث بمزيل للروائح الكريهة(...) عندما شعر بأن مزيل الروائح الكريهة لم يعد كافيا لتخبئة رائحة العفن، تحرك قليلا ثم مال بمؤخرته نحو اليمين. تنفس قليلا مسترجعا أنفاسه، ثم زحلق يده الوحيدة تحت سرواله، وعدل قليلا من وضعية الحفاضة الكبيرة التي تنزلق بسرعة نحو اليمين. الرائحة الكريهة.. تسربت داخل المكتب أيضا، قبل أن تتسلل خيوطها نحو الغرفة البيضاء. أزعجه ذلك كثيرا، وأشعره بالتضاؤل أمام امرأة جميلة بها سحر غريب وجاذبية خاصة".[الرواية:٣٨، ٣٩]

وسيلاحظ أن معاناة بروز النفسية حسب النقل السابق مهيأة لأن تتركب؛ أولا من جراء دخولها إلى منطقة تضاؤل الذكر أمام الأنثى، ثم من جراء إيقاعه من جديد في مقابلة غير رحيمة مع آدم؛ ذلك أن الأنثى هنا هي إيفا نفسها التي اهتمت بقضية آدم ثم بادلته العشق تحت عِلم بروز ورجال القلعة.

وسريعا ستسعى الشخصية وفق الترتيب الفرويدي إلى تعويض هذا النقص، وقد كان التعويض هنا تسلطا من الشخصية على الآخرين وميلا إلى الانتقام منهم، لا سيما آدم، لكماله البدني والعلمي، وإيفا لميلها إلى آدم ونصرتها لقضية الآرابيين بوصفها

عضو منظمة ليدرافيك المعنية بحقوق الإنسان الآيل للزوال، ثم الآرابيين الذين يكرههم كراهية عرقية ابتداء زاد منها شعوره بأنهم سبب ما فيه: حادث العراق، ثم نفر من ضباط القلعة لا سيما سميث وسير جون وميجور توني وغيرهم ممن يظهرون ولاءهم أكثر لضباط البحر الأحمر الأعلى منه رتبة.

ومحاولة التعويض النفسية الثانية التي يداري بها بروز نقصه ستتمثل في تشبثه بالحصول على لقب ماريشال قبل تقاعده، لا يريد أن "يضيع فرصته الأخيرة ليصبح ماريشالا قادما من حرب حقيقية، وليس من صحراء التتار".[الرواية:٢٢٨] تشغله دوما فكرة أنه لم يُنهِ حياته مجرد حارس لقلعة في صحراء آرابيا.

وستتخذ هذه القضية هاجسا نفسيا سيستغله ممالئوه ليزينوا له كل فعل يريدون تمريره بمنافقته بأنه قاب قوسين أو أدنى من هذا اللقب وأنه الأحق به؛ لاسيما نائباه بيرل غروسمان، وفريدناند ليفي:" المستشاران يؤكدان له طبعا كل صباح، أول ما يستيقظ، وفي المساء قبل أن ينام، أنه الأجمل والأبهى والأبقى، وأن فكرة الترقية إلى رتبة ماريشال أصبحت على مرمى حجر"[الرواية:٣٩١]، وقد لعب هذان النائبان دورا مهما في مشكلة بروز؛ إذ أسهما في شيء من إعداداته النفسية حين أضفيا على ذاته هالة قدسية تمتع معها بروز بما يشبه سلطة الحاكم النائب عن الإله الذي لا يُعارَض، ومن ثم فقد راح يرسخ لهذه الأيديولوجيا الثيوقراطية: "ليتل بروز هو فيكم"؛ وبموجبها رأى رجالَ القلعة رعاياه الذين يجب عليهم طاعته طاعة عمياء مطلقة. وهو يعد من

هذه الزاوية امتدادا لبروزر رواية أورويل الذي فرض على رعايا أوقيانيا–فيدرالية أوروبا وأمريكا بالرواية– ما يشبه أن يكون لونا من العبادة كذلك.

وقد ضخم ذلك شعور بروز بذاته كما ضخم شعوره بهذا اللقب نفسيا وجعله يتعلق به كأنه طوق نجاة أخير من تلك الحياة التي لم تحفل بمنجز يفاخر به، ولأجل ذلك سيمثل ظهور آدم بحياته أمرا منغصا؛ لأن بروز يظن لاعتلاله النفسي أن آدم هو من سيَحُول بينه وبين هذا الحلم:"هذا اللّاسْت أَرابِكْ البائس سيحرمني من رتبة ماريشال" [الرواية: ٤١٧]، ناسيا أو متناسيا أنه لم يقدم ما يجعله حريا بهذا اللقب طيلة حياته.

كل هذا موضوع في مقابل كمال آدم جسديا، كمالا كان من الممكن ألا يلاحظ عليه أو يكون أمرا لافتا؛ لولا أن نقص بروز جعله ينظر إلى آدم وكأنه يقيسه إلى نفسه، بدءا من وقت مجيئه إلى القلعة:" شعره الأبيض ما يزال هو هو، كثيف، لم تسقط منه أية شعرة، لم يمس بياض الكالكير أصابع رجليه.. لا يعاني من أي مرض.. حتى أسنانه كاملة.. استغرب ليتل بروز أنه في هذه السن ولم يمسس جسده أي عطل".[الرواية:١٧]

ومن هنا ستلح الرواية على قضية كمالِ آدم تلك، وستسنده إليه في أي مجال يزاوله أمرا مسلما به من قبل أصدقائه جميعا، لا سيما الرياضة والركض الذي لا يباريه فيه أحد، بل وسنلمس هذا مصرحا به كذلك من قبل إيفا في علاقتها الحميمة به. [الرواية: ٢١٨]

اشكاليات الانتماء:

ليست الثنائية السابقة إلا ممهدا للحديث عن القناعات العقدية لهاتين الشخصيتين المحوريتين، وهي من الأهمية بحيث يمكن القول إنها الإعداد الأول الذي قام بتشكيل بقية الإعدادات ونفخ فيها الروح لتتحرك. فإذا دلفنا إلى النواحي العقدية بينهما والأيديولوجيا التي يصدران عنها أمكن ملاحظة أن ثمة موضوعين مهمين أبانا عن تعارض هذه المناحي بين الشخصيتين؛ ويمكن رصدهما في: قضية الانتماء، وإشكالية صناعة القنبلة.

إن فكرة الانتماء هي في رأيي من أهم النقاط الفارقة بين الشخصيتين والكاشفة في الوقت ذاته عن عقيدة كل منهما. والكشف عن هذه الزاوية في الشخصيتين يكتسب أهميته من حيث إنهما بطلا الرواية أولا، ثم من حيث إن الظرف الحدثي الذي عالجته الرواية أو وقعت سيرورتها الروائية فيه فرض على الشخصيتين الابتعاد عن الوطن حسيا أو معنويا، ووضع أمام كل منهما قضايا تفتقر قبل خوضها إلى أن يحدد المرء موقفه من الإيمان بها أو كفرانها، دون أن نغفل أن ميزان الحدث ربما يميل في جانب بروز من حيث مثل منطق القوة من زاويتين: كونه العسكري الحاكم، وكون عِرقه هو المنتصر، في حين كان آدم هو المقموع بالبقاء بالقلعة أولا ثم هو المنتمي إلى آرابيا التي منيت بالهزيمة والزوال.

وحين نزن بروز إلى قضية الانتماء هذه فإننا سنرى انتماءه الأول الذي يفاخر ويجاهر به هو إلى "البيج برودزر"، بكل ما تمثل هذه الشخصية من تسلط وديكتاورية وعبودية للذات. يقول في حوار مع آدم:" جدي بيغ برودزر هو قدوتي في الحياة.

– لم أكن أعرف يا سيدي، لكنه مجرد شخصية افتراضية. أنت حقيقة موجودة فينا ومعنا..

– لا يوجد افتراض من العدم يا آدم..

لجم آدم لسانه، حتى لا يقول ما دار في خاطره بشكل صريح: بيغ برودزر.. طاغية صغير، لا يختلف عن الذين سبقوه، وأنت لست أفضل منه، تمجد زمنا مات. أي الحروب خضت لتكون ماريشالا ما عدا حروب الخوف والرمال والعقارب القاتلة التي قتلت المئات في هذا المكان.

– تفكيرك أسود يا آدم".[الرواية٥٧، ٥٨]

والبيج برودزر هو طاغية رواية أورويل ١٩٨٤، وهي شخصية افتراضية فيما يرى آدم لأنها شخصية روائية، غير أنها افتراضية كذلك حتى داخل عالمها عالم رواية أورويل؛ لأنها لم تشارك هناك أحداثا ولم يتعد ظهورها صورة الرأس الملصقة بشوارع أوقيانيا أو الرابضة بشاشات المراقبة. إنها الكيان الكامن في عقل كل فرد من أفراد أوقيانيا بالصورة التي أرادها الحزب الحاكم؛ وهي صورة تمثل تسلط السلطة بحق وانسحاق الفرد تحت بطش أجهزة تجسسها وتعذيبها المختلفة.

وبهاتين الشخصيتين: بروذر وبروز تتعالق الروايتان: ١٩٨٤، ٢٠٨٤ وإن كانت ثمة سياقات أخرى شكلت تجسيرا بينهما يأتي ذكرها لاحقا. ويفلح الكاتب موظفا هاتين الشخصيتين في استدعاء هذا التعالق:"

– لماذا سَمَّوك ليتل بروز، وأنت بحسب ما فهمت من عائلة بلير؟

– لأني عاشق للكبار الذين يدركون قبل غيرهم أن العالم لا يتغير إلا بالكبار وبالقوة.

– لكن ما العلاقة مع بيغ بروذر؟ ولماذا اخترته هو ولم تختر غيره؟

–هل تعرف الاسم الحقيقي لجورج أورويل.

– للأسف لا.

– هو من عائلتي. اسمه الحقيقي إريك آرثر بلير".[الرواية: ٥٩]

وكأنه يقرن نفسه في قرنهم، فهم الكبار وهو "ليتل" صغيرهم الذي يعيد ابتعاث أمجادهم؛ وما أمجادهم إلا منطق القوة واستضعاف الآخرين وانتهاك إنسانيتهم وطمس عقولهم وغير ذلك مما أفاضت فيه رواية أورويل. ويريد بذكر علاقة نسبه بأورويل التأكيد على أن شخصية بروذر شخصية حقيقية قدمها أورويل من محيط عائلته التي هي عائلة بروز كذلك، وهو بهذا يفاخر بانتماء مثل شخصية بروذر إليه نسبا!

ومن ثم راح يصنع من قلعة أميروبا عالما شبيها بعالم أوقيانيا، حتى إنه اتخذ شعارات البيج بروذر ذاتها، وأخذ يحتفي به:" بمرور قرن على ميلاد الأخ الأكبر بيغ

بروزر. اللافتات الكبيرة التي رسم عليها وجه الأخ الأكبر، الذي بعد مائة سنة لم يمت، ولم يفقد حدة نظره ولا كثافة شنبه الذي ظل أسود ولم يلحقه أي بياض. لم يَشِخْ. ملامحه هي هي، بل زادت قوة وشبابا. أصبحت قسماته أكثر وضوحا، وابتسامته الضامرة أكثر ظهورا. الشعارات التي ترفرف بالقرب من العلَم، والمختزلة في الثالوث تم تطويرها:

- الحرب هي السلام
- الحرية هي العبودية
- الجهل هو القوة"[الرواية: ٤٧]

وهي عناوين قائمة على مغالطات لغوية وتلبيسات عقلية حجاجية أفاض في تشقيقها أورويل داخل روايته عبر كتاب "حكم القلة الشمولية" لغولدشتاين، وقد تصفحه ونستون بطل الرواية ورصد له أورويل المقطع التاسع من فصله الثاني، وهو أطول مقاطع الرواية بإطلاق. وهي هنا عناوين أيديولوجيا بروز كذلك التي يعتقدها، وسيزيد عليها من شعاراته اللاإنسانية الأخرى ما سيرد لاحقا.

ويطغى انتماء بروز إلى بيج بروزر على مظاهر انتماءاته الأخرى، حتى إلى وطنه أمريكا الذي لم يمثل له إلا عددا من الجنرالات أخطأوا إذ احتفوا بآدم هذا الاحتفاء وضنوا في الوقت عينه عليه برتبة الماريشال [راجع الرواية:٣٣، ٢٤٧]، وغير خاف أن ارتباطه بالمكان/القلعة هو أمر بعيد عن الانتماء إليه، فاحتفاؤه بها كان مشروطا بدوره ودورها في بلوغ غايات شخصية أولا؛ إذ اتخذها بروز سبيلا إلى ما

يكسبه نهاية لقب الماريشال، ومن ثم كان تدميره القلعة حين تأكد له أنها لن تسعفه على بلوغ ذلك.

غاية ذلك أن خلل الانتماء لدى بروز هو ناتج حتمي عن أيديولوجياته التي يعتنق ونفسيته المختلة في آن واحد. وكفى بالمرء انحراف أخلاق أن لا يرى انتماءه إلا لمثل هذه الشخصية الديكتاورية شخصية بروذر.

ومن الحق أن آدم يفارقه في هذه الناحية؛ لصدوره عن أيديولوجيا باحث مهموم بهموم إنسانية عامة؛ غير أن إشكالية وضع آدم الناشئة بداية عن التحولات الكبرى التي ضربت كيان آرابيا، ثم عن حقيقة القمع التي يحياها بأميروبا، مع المفارقة القاسية التي يعيشها من جراء وضعه باحثا عربيا نوويا.. هذه الإشكاليات أصابت دون شك قضية الانتماء لدى آدم، ولم تجعلها من الظهور بحيث تعترض القضية نفسها لدى خصمه أو تبلور شخصية آدم والموقف العربي من ثم.

إن آدم حبيس القلعة ورهين هذه الإشكاليات تظل قضية أصله تصاحبه بطول الرواية لكنها تنزوي متمثلة في ذلك الذئب رماد الذي اتُّخِذ رمزا لأصول آدم الأولى تبعا لأسطورة أمازيغية؛ حيث أصول آدم المنتمية لآرابيا الغربية: الجزائر والمغرب حاليا:" أفهمته جدته أن رماد هو جدهم الأول. يقف على رأس السلالة. يموت الجميع ويظل هو حارسا شرسا على الهضبة العليا"[الرواية:٨٢]. وهي أصول تشير بحسب الرواية إلى أصالة سلالة آدم العربية، ولربما كانت لتتأهل رمزا إلى العودة؛ إذ يستدعي لفظ

"رماد" فكرة "العنقاء" بإرثها الأسطوري المحيل إلى تجدد البعث من الرماد؛ غير أن الرواية لم تطمح إلى استغلال ذلك بنهايتها على ما يبدو من رؤية الكاتب.

وسنرى لرماد الأبعاد الإنسانية والأسطورية في الآن ذاته:" رماد لا يكبر ولا يموت، قد يكون فينا أيضا. قبيلتنا التي جاءت منه. انظر إلى عيون نساء القبيلة. ألم تلاحظ أن في بؤبؤها كلها شيئا من صفرة ذئب البراري، رماد، المخلوطة بلون الصنوبر الحلبي، رماد يعيش خارج الزمن، ولهذا ظل مشرقا وأنيقا في حركاته وفي صوفه الرمادي ولم ينتهكه الوقت. كلما مددت بصرك بعيدا رأيته يركض بلا توقف، وكلما جن الليل سمعت عواءه وهو يخط حدود المكان، وكلما أغمضت عينيك شعرت أنه يسكن فيك"[الرواية:٨٥، ٨٦]

ولهذا يقترن ظهور رماد بسياقات افتقار آدم إليه، كحيرته بسبب صنع القنبلة، ويوم انكسار كاحله، وليلة تجربة القنبلة حين وُظف "عواؤه المخنوق" إشارة إلى أن ضحايا أبرياء سيسقطون غدا، ويوم السد أخيرا بنهاية الرواية.[راجع الرواية: ٢٧٠، ٢٥٤، ٣٠١]

كما تتداخل شخصية آدم مع ذلك الذئب في غير سياق :" شعر آدم بضيق في صدره، وبرغبة كبيرة في التحول إلى رماد والعواء بكل ما يملك من قوة" [الرواية:٣٧٩]، وسيكون الذئب مصدر فخر آدم في كل سياق يظهر فيه ذِكرا أو مشهدا:" وحده الذئب يبحث عن حريته. يتأقلم مع كل الصعوبات. فيَّ شيء يشبه الذئب" [الرواية: ١٤١]، وكأنه يشير إلى الوضع القلق الذي يحياه هو نتيجة إشكاليات وضعه.

وإذا كان انتماء آدم لعروبته عبر الأجداد تبثها الرواية عبر ذلك الذئب فإن قضية الانتماء إلى آرابيا ذاتها، آرابيا ٢٠٨٤، ترد مهتزة على نحو بيِّن، يتجلى اهتزازها عبر مظهرين: الأول كثرة إدانته الآرابيين ولومهم على ما آل إليه أمرهم، والآخر عدم البحث عن مسلك لتغيير مسارهم والاكتفاء بالتساؤل والتحسر: " هل هذا هو شعب آرابيا الذي أنا منهم؟ كيف تم كل هذا التحول في أقل من قرن؟.. من كلف نفسه السؤال؟ أية صحراء هذه، من مد للخير إلى مأوى للموت؟" [الرواية:٧٠]

وفي المظهرين لا نرى لآدم فعل إنجاز يمنحه دور الفاعل تجاه هذه الحقيقة التي تجسدت غير مرة عبر تكرار اللوم.

كما سنلاحظ أن علاقة آدم بالمكان هي علاقة على الأطراف؛ فآدم يبقى على حدود المكان ولا تسمح الرواية له بالدوران في تخومه. وانتماؤه للمكان لا تظهره الرواية بالصورة التي تبرز إيجابية آدم من هذه الزاوية، وإن لم يصل في ذلك إلى حد القطيعة والكراهية المشيرين إلى الانبتات أو عدم الانتماء؛ ولعل دوره هذا لم يجانب فنية الرواية المشدودة من ناحية أخرى إلى ضرورة تبشيع الصورة الكلية عن مآل العرب دقا لجرس الإنذار وتحذيرا للمتلقي من هذه المآلات المنتظرة.

على كل كانت هذه المرجعيةُ التي يؤمن بها الشجرة التي تفرعت عنها صفاته عالما وباحثا وإنسانا؛ في الوقت الذي كان فيه بيج بروذر يسكن فكر ليتل بروز، وهو علم راسخ في الشر المحض، وعن مرجعيته انبثقت كل فعال بروز بدءا من عنصريته البغيضة ضد العرب وآدم وانتهاء بتدمير القلعة بتفاصيل وحشية سادية ترد لاحقا.

وثنائية الذئب×بروزر على ذلك تجمع المرجعين متضادين، وهي وإن كانت ثنائية مُتصيِّدة لا تظهر لابتعاد طرفيها وعدم دخولهما مباشرة في تقابل، وكمون كل طرف فيها بعيدا عن معترك الرواية المباشر– فإنها رغم ذلك ثنائية حيوية من حيث لعبت دور الحافز نحو الفعل الذي أتاه كل منهما وبينت كيف تفترق أيديولوجياتهما وتختلف تبعا لذلك أولوياتهما.

إشكالية القنبلة

خلال هذه الإشكالية يتجلى أن انتماء آدم الأول والجلي هو انتماء للإنسانية. إن توجهه إلى حسم النزاع النفسي الذي عصف بنفسه مترددا بين إقدام وإحجام كان رغبة في أن يقدم للبشرية سلاحا رادعا وفي الوقت عينه يجعل قنبلة هيروشيما ونجازاكي شيئا من الماضي انتهى بانتهاء هيرهيتو وهاري ترومان، وشأنه في ذلك شأن "نوبل" في إقدامه على تصنيع الديناميت:" كنت ضد النووي، ولم أفكر فيه إلا لأنبه لمخاطره الكارثية. البشرية تذهب نحو فنائها، وهي لا تدري. نشأت فكرة قنبلة الجيب من العدم، من فكرة صغيرة. ماذا لو صنع الإنسان قنبلة صغيرة واستعملها عند الضرورات القصوى في مكان محدد. بدل قتل الناس جميعا في مدينة مثل هيروشيما".[الرواية:٤٢٧]

ولن أكرر كلاما سبق عن التوتر النفسي بشأن مشروعية صنع القنبلة ابتداء؛ إن الوقفة هنا على هذا الحافز المهم: القنبلة، تتجاوز هذه المرحلة من عمر الرواية، مرحلة ما قبل صنعها، إلى مرحلة ما بعد تجربتها. وكم كان فنيا من الكاتب أن جعل التجربة تشمل نوعين من القنابل، ثم جعل أولاهما قنبلة اليورانيوم تأتي وفق التصور المعد لها

سلفا، في حين خرجت الأخرى قنبلة البلوتنيوم عن نطاقها وغدت خطرا إشعاعيا يهدد المسالمين؛ أي أنها بذلك تعيد إنتاج قنبلة هيروشيما، وذلك حافز سردي جديد استُغل مناط اختبار المعتقدين؛ فقد أصبحنا منه بإزاء صدام أيديولوجيا العالم وأيديولوجيا العسكري.

إن آدم يرفض تفعيل النمط الثاني من القنبلة، لأنه فوق الغاية التي لأجلها كانت فكرة "البوكيت بومب"، ويكتفي" بقنبلة اليورانيوم الكافية لتدمير الأعداء بلا مشقة... مادام الجانب الردعي هو المقصود في النهاية"[الرواية:"٣٣٨]؛ ولا شك أن موقف آدم هنا إزاء نتائج التجربة نابع من معتقده العلمي ومتوافق في الوقت عينه مع أخلاقه الإنسانية.

على أن الموقف العسكري سيتخذ موقفا مقابلا؛ "الخطأ في التقييم وانتشار الإشعاع عند العلماء، أصبح مسألة إيجابية عند العسكر".[الرواية:٣٤٠]، وسيحس القارئ من شدة تحمس الضباط لهذه النتيجة التي عدها آدم ورفاقه مخيبة لحساباتهم أن التجربة إنما أعدت لأجل هذه الزيادة: "ربما كان اتساع رقعة PBPp2 هو ما يبحث عنه تحديدا جيش حلفاء أميروبا" [الرواية:٣٣٨]، وكأن مرفوض العقيدة الأولى هو عين مقبول الثانية!

وليس بخاف أن تجربة آدم في حدود القنبلة الأولى تحقق ما كان مرجوا منها من قبل الفريقين علماء وضباطا، في حين يعد النموذج الآخر فاشلا علميا وتجريبيا؛ وعليه كان ينتظر أن تكون من الضباط استجابة لرفض النموذج الآخر. وعليه يمكن القول

باختصار إن الرواية قدمت النموذج الأول للقنبلة ملتقى جيدا التقت عنده العقيدتان، ولكنها بفنية مقننة تقدم النموذج الآخر مفرقا بَيّنًا بين هاتين العقيدتين كذلك.

وليس مستغربا أن يمثل العلماء الجانب الضعيف في هذه الإشكالية خاصة بعد انتهاء دورهم في تفعيل النموذجين، لكن قسوة نتيجته تكمن في أن فيه إعادة لثنائية المركزي والتابع وتعميقا للهوة بينهما. ثم إن موقفهم الرافض لن يغني البشرية شيئا لهشاشته ووقوعه في الناحية المستضعفة.

٢- تحولات المكان

النص محل الدراسة هو رواية مكان إلى حد بعيد، وقد أدارت الرواية تفاصيلها المكانية ضمن ثلاثة تجليات بارزة له:

قلعة أميروبا: اتخذت اسمها عن فيدرالية أمريكا وأوربا، وهي إحدى النقاط المعبرة عن وجود هذه الفيدرالية في المنطقة العربية، مقابل تحالفات أخرى تحاول فرض سيطرتها على المنطقة كتحالف إيروشينا المكون من "إيران وروسيا والصين"، وتقع في جنوب الصحراء العربية بين الخليج العربي والبحر الأحمر، ووجودها في هذه المنطقة ذو هدف:" اقتصادي وعسكري أيضا. فهي تقع في عمق صحراء آرابيا، ما يمنحها قدرة على حماية كل ممرات النفط والغاز واليورانيوم.. ومراقبة حركة السفن في مضيق هرمز والبحر الأحمر، ومحاربة التنظيم في عقر داره وتحجيم دوره" [الرواية:٢٩٤]

الصحراء: هي بحسب الرواية" منطقة شديدة الخطورة بسبب التنظيم وفراغ المكان المهول ٦٥٠٠٠٠ كيلومتر مربع في شكل مثلث، طوله ألف كيلومتر وعرضه٥٠٠ كيلومتر. بعض كثبانه تصل إلى ٢٥٠ مترا. من يستطيع إدارتها؟"[الرواية:١٦٥].

السد: موقعه بآرابيا الجنوبية: اليمن حاليا، وهو نقطة تجمع لشراذم من آرابيا، ومجال عمل رابطة ليدرافيك المعنية بالأجناس البشرية الآيلة للانقراض، وهو أخيرا مسرح نجاة آدم بنهاية الرواية.

ثنائيات المكان:

سيتهيأ المكان لأن تتقاطب أطرافه في ثنائيات كاشفة عن أبعاده وعن تحولاتها، وهي ثنائيات متعددة يمكن صبها ضمن أنماط صغرى متعددة: المفتوح والمغلق، والإيجابي والسلبي، والحميم والبغيض، والطارد والجاذب..[١٨]، وأوثر رصدها ضمن ثنائيتين كبريين: الديستوبي واليوتوبي، والقيد والتحرر؛ حيث تتجلى الثنائية الأولى على نحو أكثر عبر المكان/الصحراء، ثم المكان/السد، في حين تقع الأخرى على المكان/القلعة في المقام الأول؛ ذلك أننا بإزاء مستويين لتحولات المكان: تحولات عامة نحو مصير كابوسي ديستوبي، وأخرى خاصة بالقلعة نحو القمعي.

٢/١ الديستوبي × اليوتوبي:

تبنى رواية الاستشراف بعامة على نمط تحولات تبشر أو تنذر به، وهي تحولات في المكان والأيديولوجيات والأنشطة البشرية بقدر ما هي انتقالات في الزمان المستقبل. ويمكن التقاط طرفين يستغرقان أشكال هذه التحولات وهما: الديستوبي واليوتوبي

(Distopia/Yotopia)؛ بما يشير أولهما إلى نمط التحولات غير المرضية أو حتى المفزعة إذا كنا ننظر في عمل واسيني تحديدا، مقابل انفراد الأخير بالتحولات الإيجابية.

إن عرب رواية واسيني عالقون في انتكاسة حضارية بالَغَ الكاتب في إظهار كابوسيتها؛ إذ تضربهم تحولات تصل بهم إلى حد الانقراض والزوال عن المنطقة وعن العالم كأنهم غدوا فصيلا حيوانيا جار عليه الصيد والقتل. وينبني النسق الديستوبي الكابوسي على مآلات يمكن رصدها في:

- سلبية دور آرابيا/الكيان في المنطقة.
- تمزق آرابيا/العِرق، وتحول سكانها إلى عرب التيه والشتات والتوحش.
- تحول آرابيا/المكان إلى صحاري القتل، بعد نضوب الثروة النفطية، وشح المياه.

ويبني الكاتب رؤيته المستقبلية لهذه التحولات مدعومة بتحركات تقع اليوم من الأقطار العربية تجاه قضاياها الحيوية؛ كقضية الصراع الإسرائيلي/أزاريا، وقضية المخزون النفطي، وقضية الانقسامات التي منيت بها بعض أقطار الوطن العربي، وكقضية الفقر المائي، وقضية الإرهاب والتطرف الديني..

إن الدور الذي يلعبه ساكن المكان في إحداث تحولات مكانية مفزعة هنا ينشأ عن إساءته إدارة أزماته تجاه هذه القضايا المصيرية، وتغليبه المصلحة الفردية مقابل إضاعة المصلحة القومية، وخطر ذلك أنه يسرع من وتيرة التشرذم ويبدد مساعي

التكتل، وهو ما يشير إلى خلل في قضية الوعي بمقدرات الأمور وبحجم الخطر الخارجي المتربص.

ولا ينتظر من المكان والحال هذه إلا أن يتحمل تجليات هذا المسار السلبي فلن نجده داخل الرواية إلا مكانا ممزقا لا يتسع إلا لبؤر بعينها من شراذم آرابيا المنتظرين زوالهم، أو مكانا مطمورا تحت زحف الصحراء رامزا إلى طمسه حضارة تحته لا تستحق أن تظهر !

وعليه ستتألف الصحراء مشيرة إلى تحولات بغيضة تقع على موضوعين كلاهما كابوسي: الأول هو تحول جغرافي، والآخر يمكن الاصطلاح عليه بالتحول اللوجستي.

يشير النمط الأول إلى تغير في الطبيعة الجغرافية، نتيجة مشاكل الفقر المائي بعد جفاف الأنهار الكبرى بالمنطقة لا سميا نهر النيل[الرواية:١٦٩،١٧٠]، وسرقة المياه الجوفية!:" المياه الجوفية.. سحبتها أزاريا من تحت بوسائلها المتطورة جدا"[الرواية:٤٢٢]

وهذا التحول الجغرافي يصل بحسب الرواية إلى حد الانتكاس الحضاري؛ فالصحراء هنا ليست المترامية على أطراف الكيانات العربية المتحضرة؛ بل هي ناتج فعل التحول الذي يقدم بحضوره بديلا قاسيا للغائب: الماء والاستقرار والمدنية والتحضر؛ هي الطمس لكل ما كان يعبر عن هذا الوجود:" أية صحراء هذه، من مد للخير إلى مد للموت؟" [الرواية:٧٠]، إن زحف الصحراء هنا هو طمس للحضارة بقدر ما هو تعرية لخصوبة الأرض.

وأما التحول الآخر الذي تتسع له الصحراء فضاءً فهو واقع على استغلال الآخر لها واعتبارها منطقة لوجستية ضد العرب بعد أن كانت لصالحهم، سواء كان التنظيم الذي يستغلها مسرحا لضرباته ونطاقا لتوسعاته الآخذة في ابتلاع كيان آرابيا، أم كان أميروبا نفسها في صدامها مع التنظيم صداما يصطلي بناره سكان آرابيا أنفسهم لا التنظيم حقيقة، أو في اتخاذها الصحراءَ مسرحا للتجريب النووي الذي يستغل المكان وساكن المكان لمراقبة نتائج التجربة وقياس حجم الضحايا ونحو ذلك.

وإذا كان التحول الجغرافي يثير معاني الرجعة الحضارية، فإن هذا التحول اللوجستي المستغل للمكان ضد ساكنيه سيؤكد هذا المعنى؛ لأنه ينقلنا من العبث بآرابيا المكان إلى حقيقة غياب آرابيا الكيان وإدبار حضارتها.

ومن ثم كانت الصحراء بتحولاتها تلك مرآة لآدم انعكست على صفحتها صورة آرابيا المزرية، وهي داخل عالم الرواية ليست رمالا بقدر ما هي تحولات طمس حضاري.

ولا يفلح السد في إزاحة هذه الدلالة التي أسسها فضاء الصحراء، على الرغم من أن ذكره يجيء مرتبطا داخل الرواية بمظاهر ثلاثة يبدو من مجرد ذكرها أنها تُوجِد مساحة إيجابية وتؤسس لنسق يوتوبي:

يرتبط ذكر السد أولا بفكرة تجميع شراذم آرابيا حوله، والتجمع فيه إزاحة نسق التمزق المتسلط على آرابيا، كما أنه بوقوعه بمنطقة الجنوب يستدعي الذاكرة العربية

بخصوص قيام حضارة العرب الأقدمين باليمن حول سد مأرب؛ أي أن لفظ "السد" ربما تأهل ليتحمل هذه الطاقة الترميزية.

غير أن محاولتنا التأسيس لنسق يوتوبي هنا عبر ثيمة السد تبوء بالخسران؛ حين تلحقه الرؤية الكابوسية، فتتحول فكرة التجمع للتقوي واستعادة الحضارة الغائبة إلى فكرة التجمع للإبادة الجماعية؛ فكأنه تجمُّع لأجل الإفناء الكلي؛ سيتأسس ذلك أولا عبر إشارة الرواية إلى تلوث ماء السد نوويا: "هو مفيد ولا شك...لكن هل ماؤه نقي؟" /" فكرة السد نبيلة جدا ومهمة لكن الأنبل هو المحافظة عليه وعلى مائه" [الرواية: ١٦٦،١٦٤]، ثم عبر تناحر المحيطين به نتيجة قلة مائه كذلك:" قبائل متعددة تتجه نحو نقطة الماء...ستتقاتل وتفني بعضها بعضا، كلما وقعت المعارك(...) الكثير منهم يكون قد مات منذ سنوات لولا هذا السد الأزرق، والسد الصغير بجانبه الذي يسمونه الوادي الأبيض، وهو مكون فقط من فائض تدفق السد الأزرق. اليوم لم يعد التدفق واردا" [الرواية: ٤٣٣] ، ثم عبر هدمه وتدميره أخيرا ومَن حوله. [راجع الرواية:٤٤٥]

وناتج ذلك أن السد لا يفلح في أن يُتخذ سبيلا لاستنبات العرق من جديد ولا يُستغل توازيه المكاني مع السد الأول في صنع تواز بين أثرهما الحضاري.

كما يرتبط السد ثانيا بما أسمته الرواية المنظمة الراعية حقوق الإنسان الآيل للزوال "ليدرافيك"، وقد مارست عملها على عرب السد المتجمعين حوله من كل بقاع آرابيا. ولربما مثلت هذه المنظمة البعد الإيجابي الوحيد الذي مورس تجاه سكان آرابيا،

رغم قسوة التسمية التي تتخذها بما تحمل من مفارقة مذكِّرة بالمآل الحتمي المنتظر، وهي مفارقة يدركها أفراد ليدرافيك أنفسهم. [راجع الرواية:٥٢]

يحتفي أعضاء ليدرافيك بالسد ويرون فيه قيمة إيجابية نحو هذا الجنس الآخذ في الانقراض لكنهم في الوقت عينه لا يُخفون مخاوفهم تجاه تحولاته السلبية السابقة: "ربما سيكون السد سببا في التعمير، وفي الحالة الأسوأ سببا قاتلا في التهجير"[الرواية:١٦٦]، ويزيد من وطأة هذه التحولات تحديات تتمثل في عدم تعاون القوى العسكرية الرابضة بالمنطقة: أميروبا تحديدا، ثم خطر العرب المقيمين حول السد أنفسهم لتبديهم وشراستهم وفقدانهم الثقة في كل أجنبي واقتتالهم الطاحن فيما بينهم:" رابطة الدفاع عن حقوق الأجناس الآيلة إلى الزوال، قدموا طلبات عديدة قبل أن تتم الموافقة لهم للعبور نحو القبائل التي ماتزال في المنطقة، وقد تم التعدي على وجودها. يصبح الناس شرسين في كل مكان، عندما تسرق أرضهم ويقتل شعبهم" [الرواية:١٦٢]، وفي ذلك ما قد يشير إلى تعطل دورها، وهو ما ستؤكده وقائع الرواية حيث يغيب فيها أي دور فاعل لها يغير مسار آرابيا التي بدا أن مصيرها يخطه الآخر أميروبا والتنظيم.

<u>والحضور الثالث والأخير</u> لفضاء السد في الرواية مرتبط بمشهد النهاية حيث إنجاء آدم، ولا ريب أن قضية إنجاء آدم فيها دفقة إيجابية واضحة؛ غير أنها لا تفلح كذلك في تبديد هذه الأجواء الكابوسية؛ لأن الإنجاء كان فرديا يخص آدم وحده ليصدق عليه الوصف بأنه <u>العربي الأخير الناجي</u>، كما سبق أن نعتته الرواية <u>بالعربي الوحيد الناجح</u>، ثم إن المشهد الكلي كان مشهد قتل ودمار للسد ومن حوله، زيادة على أنه

مشهد يعقبه هجران آدم إلى مكان آخر ليس عربيا: بنسلفانيا؛ بما سيؤكد سلبية أدوار كل من أحاط بالمكان تجاه أزمة آرابيا.

وأما القلعة فإنها تدخل الرواية فضاء مكانيا ذا بعدين: يسير أولهما مع نمط التحولات الديستوبية الواقعة ضمن هذه الثنائية، ويفجر الآخر أزمة ساكن المكان عربي الرواية الوحيد: آدم، وهذا الأخير داخل ضمن الثنائية التالية لاحقا.

تشير التحولات الواقعة على القلعة إلى تحول نشاطها وأهدافها من كونها مستراحا للحجيج في سالف عهدها إلى أن غدت حامية غربية ذات أهداف استعمارية: "كان للقلعة وجه غير وجهها العسكري، كما هي عليه اليوم. وكان المكان آمنا أيضا. كانت معبرا للحجاج. فيها كانوا يرتاحون قبل مواصلة سيرهم".[الرواية:١٦٤]

وهو مستوى من التحول لا تفيض في تفاصيله الرواية كثيرا، مكتفية بإشارته الواضحة على افتقاد العرب ما يحدد مصيرهم بأنفسهم وسطوة الآخر في العبث بما في حوزتهم وتجنيده ضدهم، وإن كان منها اعتناء بتتبع تاريخ القلعة حيث يقدم الكاتب عبر الهامش بحسبانه من أهم تجليات النص الموازي نبذة استغرقت أربع صفحات كاملة توقف فيها السرد، وأزاح خلالها الهامشُ المتنَ وحل محله يخلط التخييلي الجمالي بالواقعي التاريخي، ويُبَث هذا الخطاب عن القيمة التاريخية والجمالية للقلعة داخل المتن عبر ليتل بروز الذي يحيط بتاريخ القلعة جميعا ويقصه عبر الشاشات كلما نزل بالقلعة ضيوف جدد.[راجع الرواية: ١١٧- ١٢٢]

وزيادة على هذا التحول المحتشد بالتاريخي، فإن القلعة كانت المكان الذي وضع بقايا العرب بين شقي ثنائية غير رحيمة: التحضر والتبدي، فهو المكان الوحيد المشيد في هذه الصحراء والمتحلي بإمكانات المراقبة والمزود بالمؤن والسلاح وغير ذلك مما تفتقر إليه آرابيا المشتتة في رمال الصحراء.

وهكذا يتسلط النسق الديستوبي على تفاصيل المكان ويصبح نسقا غالبا؛ حتى ليصح بناء على ذلك القول: إن القطب اليوتوبي في هذا الثنائية هو قطب غائب، وغيابه وإن أشار إلى اطراد الرؤية الكابوسية المعتمة فإنه يدق جرس الإنذار للتفتيش عن أسباب الغياب؛ تحقيقا للتعادلية المفقودة بين هذين القطبين المهمين.

وإذا كان الفضاء الحاضن للإنسان تناله هذه التحولات القاسية، فلا ريب إن إنسانه تقسو عليه التحولات ذاتها. وبهذا يتم المكان الدور الكابوسي الذي ينتظر أن يعيشه العرب مستقبلا حسب خطاب الرواية، وتتأكد الدائرة التي لا مفر لهم منها، حيث ستتولى تحولات المكان التأثير فيما بقي من شراذم آرابيا وتسقط عليهم تحولات تحيلهم من التحضر إلى البدائية، ومن الدولة إلى العصابة، ومن الاستقرار إلى الارتحال المستمر، ومن القانون إلى الهمجية، ومن ثم من الإنسانية إلى التوحش، ثم من الوجود إلى الزوال: "ينقرضون بهدوء وسكينة. لم يعودوا سادة مصائرهم. كل شيء يتمزق حول السد وفي الخلاء.. الكثير منهم كانوا مهندسين ومفكرين وجامعيين، أصبحوا اليوم هائمين في الصحارى"/" لم تبق منها إلا عينات نادرة ضائعة في قفر آرابيا والصحاري،

الآيلة إلى الزوال حتما، كأن دورتها الطبيعية انتهت، أو هي في طريقها إلى ذلك".

[الرواية: ٢١٩/ ٨٨]

وتفجر هذه العلاقة بين المكان وساكن المكان جريرة السلبية التي قُدم بها مجتمع آرابيا، وهي سلبية لا تنالهم فقط في واقع تنبئي مرصود لهم مستقبلا؛ بل تبدأ منذ لحظة الراهن؛ وعبر هاتين اللحظتين تتأسس ثنائية صغرى: الراهن والتنبئي لتدين كيان العرب راهنا وواقع آرابيا مستقبلا، وهي ثنائية يتقابل ركناها زمنا لكنهما يتكاملان دلالة؛ ومؤداها أن القضية متجذرة في الماضي، وليس للمستقبل الكابوسي إلا قطاف ثمارها المرة :"هؤلاء الذين تراهم في تيه الرمال، كانوا بؤساء حتى في عز تدفق النفط والمال والبورصات، التي صنعت أوراقا وأموالا، ولم تصنع وطنا واحدا" [الرواية:٦٣] وهكذا تنطق المقابلة الحادة صناعة الأموال×صناعة الوطن بهذه الحقيقة المرة. وهي المقابلة ذاتها نراها حاضرة كذلك في التعبير عن أن هذه التحولات كانت قنطرة بين الراهن والمستقبل: "الآرابيون الذين كانوا يعيشون رخاء كبيرا أصبحوا اليوم داخل عواصف التيه ورمال النار والموت. الناس يخطئون إذ يظنون أن الغنى والقوة خالدان. كل شيء أكثر هشاشة من جناحي فراشة. البشرية تحتاج إلى تذكير دائم بضعفها"[الرواية: ١٦٥]

ولا ننفي أن الفعل الإنساني المُحيل هنا يقتصر على آرابيا فقط؛ إذ يتأكد فعل إنساني تال يمثله الآخر غربيا إمبرياليا كان أو عربيا متطرفا، وهو برغم دوره البارز في إلحاق هذه التحولات بآرابيا عِرقا ومكانا، فإن دوره– فيما أرى– يأتي دورا لاحقا للدور الذاتي السلبي الذي مارسه الآرابيون أنفسهم حتى أضعفوا على المدى جسد آرابيا؛

والشأن في العدو الخارجي ألا يقوى على اقتحام جسد قوي: "آرابيا لن تمنح فرصة تأمل وضعها بسبب جنون حكامها وأطماعهم وإخفاقاتهم. كلما زادت الحروب كثافة، والفقر توغلا، أصبح التفكك سريعا وكبيرا، ومن الصعب التحكم فيه"[الرواية:١٤٠- ١٤١]

وهذا الفعل الخارجي المتربص داخلٌ ضمن ثنائية الراهن والتنبئي كذلك؛ فهو جلي من سياق يعيشه العرب اليوم وتلمح إليه الرواية مستقبلا على لسان بروز في غير موضع:" العدو إذا أردت أن تدمره إما أن تمحوه أو ترجعه إلى بدائيته الأولى. البدائية فيها متعة أن ترى البدائي يقتل أخاه على لقمة خبز، أو الاستيلاء على أرض لا تنجب إلا الرمال والرماد، أو يقاتله من أجل مصلحة ميتة"/" هناك أمم لا تصبح مفيدة إلا عندما تتحول إلى رماد. نحن من يمنحها النار وفرصة التحول إلى رماد، قبل الدخول إلى تاريخ ظلت على حوافه" [الرواية: ٤١٩/ ٩٥]، وهذه ترجمات وإعادة صياغة لشعار بروز الأول:" العربي الجيد العربي الميت".

ويمكن في ضوء هذه التعادلية الغائبة بين قطبي الثنائية: الديتسوبي واليوتوبي استخلاص أن هذه التحولات المكانية ستسهم في تفجير أزمة هوية ذاتية وقومية؛ وذلك لارتباط المكان بقضية الهوية ارتباطا تبادليا حتميا؛ وله حديث لاحق.

٢/٢ القيد × التحرر

تُستغَل القلعة حافزا سرديا جيدا؛ من حيث تتلاقى عليها أطراف الرواية الثلاثة المهمة؛ فهي الفضاء الذي هيأ لـ"بروز" مزاولة عمله العسكري، وهي أداته للتسلط على الغيست والسجناء وهو العالِم بكل ما فيها وبتحولات التاريخ عليها منذ بنيت:" كل من

زاروا القلعة اندهشوا في تاريخها وتنظيمها يرويه ليتل بروز بحماس العارف من وراء الشاشات لضيوفه.. يجيب عن كل الاسئلة حتى المعقد منها".[الرواية:١١٧]، وهي بعدُ سجن آدم الذي عمق من بغضه ديكتاتورية بروز وأطلعه على شيء من مصير آرابيا. كما مثلت بالنسبة للتنظيم موقعا حيويا لوجستيا يسعى لاستعادة السيطرة عليه.

وقد مضى أنها داخلة ضمن الثنائية الأولى المؤسسة لنسق الديستوبي، وهي داخلة هنا بمستوى آخر لا ينتمي إلى التحولات الانتكاسية مباشرة بقدر ما ينطوي على أنساق مكانية سلبية. وهو المستوى الغالب والأكثر ظهورا لتمتع القلعة بمساحة من الظهور أوسع مما أتيح للفضاءين الأولين.

تتسلط ثنائية القيد والتحرر على عدد من أبعاد القلعة المكانية المصنفة من منظور الممارسات الإنسانية المستغلة إياها إلى سلبي وإيجابي. يدخل تحت الأبعاد السلبية للمكان عدد من الأوصاف تقدمه بالطرح الذي يُنفر الذات منه، فهي تحمل عليه من صفات الانغلاق خاصة ثم تتبعها بما يشير إلى التقييد أو ما يضاد معنى التحرر؛ وتلك صفات تبغِّض المكان إلى الذات؛ من حيث "يرتبط المكان ارتباطا لصيقا بمفهوم الحرية.

ومما لا شك فيه أن الحرية- في أكثر صورها بدائية- هي حرية الحركة...هي مجموع الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها دون أن يصطدم بحواجز أو عقبات، أي بقوى ناتجة عن الوسط الخارجي، لا يقدر على قهرها أو تجاوزها"[١٩].

وتبدأ أزمة آدم مع المكان بدءا من الطريقة التي اقتيد بها إلى القلعة:" أنا جيء بي إلى هنا بالقوة بشكل يشبه الاختطاف. لو خيرت لبقيت في المكان الذي كنت فيه". [الرواية:١٣٨]، ويضعنا النقل السابق في عمق قضية المكان بقدر ما يخبرنا بتفصيلة تخص ظروف مجيء آدم إلى القلعة؛ لأن الاختطاف يحيل الشخصية إلى احتسابها واقعة بين مكانين: فثمة المكان المأوى حيث الأب والعشيرة والأبحاث والزوجة، وهو مكان تُغيِّبه من منظور الشخصية عملية الاختطاف تلك، وثمة هذا المكان المنفى الذي بدأ النفور منه منذ وصوله إليه عبر اختطافه ومعاملته معاملة الشيء دون احترام إنسانيته ومكانته. ثم تأكد ذلك بإقامته الجبرية بالقلعة، والتجسس عليه ومراقبته ليلا ونهارا، عبر الشاشات تارة وعبر الشريحة الرقمية التي ألحقوها بذراعه تارة أخرى.

الدلالة السلبية الأولى التي يكتسبها المكان إذن كونه سجنا أو منفى؛ يُعبَّر عن هذا بألفاظ صريحة أحيانا، وعبْر أوصاف لمكوناته داخلا وشكله خارجا أحيانا أخرى: "كل حلمي أن أخرج من هذا المكان الذي أُعتبر فيه غيست لوقت مؤقت، محمي صحيح، لكنني لست مرتاحا، لأن الذي يحميني هنا في القلعة، لا يفعل ذلك بقناعة، ولكنه ضغط الحاجة.. لكنه يمكن أن يعيدني إلى وضع المقيم، الذي هو أسوأ من سجناء غوانتانامو"/" شعر آدم كأن وضعيته لا تختلف عن محكوم عليه بالإعدام. ينتظر، في تيهه داخل هذا المكان، شيئا بلا هوية". [الرواية:٢٨٠/١٢٣]

وفي ظل هذا الشعور المسيطر على الشخصية؛ يَرهف الإحساس بوطأة المكان وتفاصيله: صوت الباب، مدى اتساعه، حشرات الصحراء..:" أصعب صوت هو غزغزة

الباب الفولاذي الثقيلة، التي أصبحت تتحكم في كل حواسه"/" مدخله الصغير الذي لا يتجاوز المتر الواحد علوا، ونصف المتر عرضا، إذ عليه كلما خرج منه.. أو عاد إلى مقصورته، أن ينحني جيدا إذا أراد أن يمر" [الرواية:١٢٤/ ٨٩/ ٩٨/ ١٢٢]، ويصبح افتقاد الحميمية بين الأشخاص أمرا حتميا ومضجرا، خاصة بسيطرة فكرة المخاطبة عبر الشاشات على أجواء القلعة؛ يفصح آدم عن هذا البعد وهو يخاطب سميث:" أشكرك لأنك أول مرة أحسستني أني موجود، وأني لست مجرد شخصية افتراضية، في قلعة افتراضية أيضا"[الرواية:١٣٧]، بل إن سماء القلعة ذاتها لتتحمل من ذلك نصيبا:" الفتحات العليا، داخل المقصورات..لا تظهر إلا سماء فارغة، لونها رمادي ورصاصي لا يتغير أبدا. كلما تأمله آدم شعر باختصار الحياة وشطط القلب"[الرواية:٨٨].

ولا ريب أن مثل هذه التفاصيل الجزئية لمكونات المكان تُعبَّأ عبر دلالاتها السيميائية بمردودات نفسية؛ فصوت الباب غدا هاجسا يلهب حواس الشخصية ويُذكِّر صوته الفولاذي بالسجن، والمدخل الصغير يُشعر بمدى الضآلة التي تشكل مصير آدم في القلعة، والشاشات ليست إلا علامات بغيضة على التلصص، فوق أنها تمحو بقسوة عالم الواقع وتحل محله عالم الافتراض، ومثل هذه التفصيلات، فيما يشير جاستون باشلار، هي ما يسهم في بناء الإحساس الكلي بالمكان سلبا وإيجابا(٢٠).

ويُتِمُّ الشعورُ بانغلاق المكان دلالةَ الحبس التي تشعر بها الشخصية:" الشيء الوحيد الذي يعرفه جيدا أنه وحيد، وفي مكان مغلق، وفتحاته القليلة لا تقود إلى أي شيء، ولا حتى إلى الفراغ، لا فراغ في هذا المكان الثقيل. كل شيء ممتلئ بشيء ما.

برائحة ما وبخوف ما أيضا"/"بعد ساعة أدخل إلى غرفة مسدودة من كل الجهات. لا نافذة فيها ولكنها مكيفة بشكل جيد"[الرواية: ١٠١، ٨٨]

والانغلاق شيء مفروض على القلعة بطبيعة الموقع أولا؛ من حيث هي معلم وحيد وسط الرمال، ثم يتأكد هذا الانغلاق داخليا بالسياسة التي يتبعها بروز في إدارة القلعة، حتى لم يعد لآدم داخل القلعة إلا نافذة صغيرة يطل منها على محيط القلعة، وهي التي سيستغلها بدوره ليراقب بعض نشاطات ضباط القلعة.

وتأتي **الدلالة الثانية** التي تعبر عن المكان بأنه مكان تجسس على الشخصية؛ حيث استغل بروز تفصيلة مكانية جزئية لهذا الغرض، وهي الشاشات التي غدت عيونا تتلصص حتى على خصوصيات الذات:" نظر إلى الشاشات التي تحتل حيطان مكتبه الواسع، في الطابق السابع. تأملها واحدة بعد واحدة ليرى عن قرب الوضعيات المختلفة التي كان عليها آدم وهو يتقلب في فراشه"[الرواية: ١٤]، وكتابات آدم التي يكتبها على جهاز إليكتروني زودته به إيفا، تراقبه القلعة كذلك:" كل خربشتك الليلية تصلهم. ربما لا يفهمونها بسهولة، لكن الشاشات الراصدة توصل لهم كل شيء".[الرواية: ٧٩]

ويمثل فعل التجسس تضييقا على الشخصية حتى إنها لا تطمئن إلى مجرد التفكير بعيدا عن رقابة التجسس؛ وقد مضى بنا من قبل أن آدم حين جال بخاطره ضحالة شخصية بروز وهو يحاوره، قطع بروز الحوار فجأة وخاطب آدم مباشرة بمكنون ما دار في عقله:" تفكيرك أسود يا آدم"! [الرواية٥٨].

وذلك سياق فيه من التنبؤ الديستوبي الذي ينذر بانتهاك إنسانية الإنسان عبر الميديا المتطورة، كما لا يمكن نفي أثر أورويل في هذه الناحية؛ فروايته باب كبير في تأسيس معنى التجسس خاصة على الفكر؛ وحين نسمع بروز يخاطب آدم قائلا:" سمع الماريشال ليتل بروز يتحرك في دماغه.. ليس ممنوعا يا صديقي أن تفكر، ولكن ممنوع ان تفكر بشكل مخالف..الخطر ليس في التفكير، ولكن في التفكير المختلف الذي يقتل النظام"[الرواية:٣٢٦] فإننا نتذكر الموقف ذاته برواية أورويل حين وقف أوبريان أحد أفراد الحزب الحاكم يلقن ونستون أحد أفراد أوقيانيا ضوابط التفكير التي ينبغي ألا تخرج عن مصلحة الحزب[راجع رواية ١٩٨٤: ٢٥٧]. كما أننا نتذكر بعبارة بروز: "ليتل بروز لا يراقبكم، لكنه فيكم".[الرواية:٢٩] العبارة ذاتها التي ما فتئت تتردد بطول الرواية عن البيج بروذر.

وفعل التجسس فعل تحول مكاني كذلك لأنه لا يقتصر على الشاشات فقط؛ بل إن القلعة كلها ذات هدف تجسسي، فهي على يد حامية أميروبا مؤسسة تجسس مخابراتية كبيرة، وهي من ثم مثلت مكانا بغيضا طاردا بالنسبة إلى الشخصية :"كانت تبدو له في النهاية، مثل ثكنة عسكرية، مرمية في الرمال، لا شيء فيها إلا رائحة النقط والمحروقات والخوف، وآلات مخفية تحت الأرض، وفي خفايا السماء، لتتحسس أي شيء غير عادي في أرض بلا حدود.. كل هذا ينام داخل قلعة تغيرت في شكلها الخارجي رأسا على عقب وفي ناسها أيضا".[الرواية: ١٢٢]، كما تشير العبارة الأخيرة

من النقل إلى التحولات الجذرية التي أصابت القلعة بانتقال أهدافها من العمل لصالح العرب إلى العمل لغير صالحهم.

والصفة الثالثة التي تُبغِّض المكان إلى آدم تَلبُّسُه بالعنصرية؛ فقد استغل "بروز" الشاشات مرة أخرى ليبث من خلالها شعاراته العنصرية ضد العرب، إضافة إلى الشعار الذي وضعه عند مدخل القلعة، مختارا له هذا المكان خاصة ليكون عنوانا للقلعة وساكنيها، ويتساءل آدم:" كيف يمكن أن تشتغل في ظل الكراهية؟ انظر إلى الشعار البائس عند مدخل القلعة: العربي الجيد هو العربي الميت"[الرواية: ١٣٨]، ومثل هذه الشعارات لا يقف عنوانا فقط يشير إلى القلعة بل هو شارح عقيدة ساكنيها.

وهذا الجو الخانق المسيطر على المكان يجسده جاثما على النفس بما يزيد من وطأته على الذات. ويصبح من ثم طلب الزوال حتى إلى لا شيء أمنية مشروعة مطلوبة :"تمنى أن يكون حشرة تلتصق بحائط قديم حتى الموت، من دون أن تتعرض لأي أذى ولا تعتدي على غيرها؟ ضحك آدم في أعماقه: ألست اليوم تلك الحشرة؟ لقد بذل جهودا كبيرة حتى كاد يصاب بالجنون، قبل أن يتآلف مع المكان".[الرواية:٨٩]

ويمكن القول إجمالا إن قلعة أميروبا ليست بغيضة من حيث هي سجن بقدر ما هي سجن من حيث هي بغيضة إلى الذات؛ إذ لا شك أنها فضاء حيادي بداية؛ غير أن هذه الحيدة تتبدد نتيجة التحولات الواقعة من ممارسات مَن في المكان التي تُلحق به هذا القدر من البغض، وهذا قريب أيضا مما سبق تقريره بشأن بيئة آرابيا التي فقدت حيدتها ومالت نحو التحولات الديستوبية نتيجة ممارسات ساكنيها كذلك.

على أن تمتع آدم بدور البطولة في حدود احتياج بروز إليه سيمنحه دورا إن يكن شاحبا فإنه كاف لأن يعمل قطب الثنائية الإيجابي هنا ضد قطبها السلبي، وذلك ما لم يتح لآرابيا السد والصحراء لغياب من يمثل بطولة هناك؛ ومن ثم هيمن النسق الديستوبي.

إن آدم هنا سيتحرك بشيء من الإيجابية ربما لن تمنحه حرية مطلقة؛ وإن منحته استغلال بعض تفاصيل المكان ليبدد هذا الجو القمعي هونا ما ويفتح نافذة للتنفس بين ضواغطه. إن آدم يوقن أن القلعة "سياج صلب لا يستطيع أن يجاوزه(...) غير أنه يقدر على زعزعة الحدود شيئا ما.. وبفعل إرادته وقوته يوسع الإنسان من حقل فاعليته"[٢١].

وهذا الاستغلال للمكان تتأهل له شخصية آدم ابتداء بما حظيت به من إمكانات يفتقر إليها المهيمنون على المكان؛ فهو العالِم الوحيد بسر صناعة القنبلة، وهذه إشكالية قيدت حرية بروز في معاملة آدم معاملة سجين كامل: "أشعر بالشلل مع شخص يفترض أنه عدو.

مع أنه العينة الآرابية الأكثر ذكاء التي كبرت بين حيطان جامعاتنا"/ " زمن أسود ويمشي بشكل عكسي، آرابي بائس يعلمنا ما يجب فعله وما لا يجب فعله؟ سأنتحر قبل أن أرى آرابيًّا يأمرني أو حتى ينصحني. لو كنا في ظروف غير هذه كنا بدل حمايته بعناه للتنظيم.. والكوربو سيكون سعيدا لسلخه حيا، لكننا نخاف من استثمار قدراته"، زيادة على أن بروز مكبل بأوامر ضباط البحر الأحمر طمعا أن يمنحوه رتبة ماريشال:

"كل شيء إلا الموت. يجب أن يظل حيا يا سير جون.. لا أريد أن أدخل في صراع مع عساكر البحر الأحمر ومضيق هرمز. هم أصحاب القرار الأعلى"[الرواية: ١٥، ٤١٩، ١٩]

أي أن أية صفة إيجابية سيحظى بها آدم داخل هذا المكان سينالها رغما عن المحيطين به، وهذا الضغط الخفي يستثمره آدم في الإفلات من هذه القبضة الحديدية الفارضة نفسها، وإن كنا لا نطمع منه والحال هذه أن يمثل بانفلاته ثورة عليها:" يعرف جيدا أنه مراقَب وأنه ليس سيد نفسه منذ أن أدخلوا الشريحة تحت جلده، ومنذ أن شحنوها بما أرادوه. لكنه صمم أن يقاوم ذلك(...) اليد البشرية تمس كل شيء فيه وتهيكله كما تشاء، إلا جوهر القلب وعمق التخيل الذي لا تراقبه الآلة مائة بالمائة" [الرواية:٢٣٢]

المدرج والنافذة

والمفردات المكانية المستغلَّة لهذا الغرض هنا أهمها المدرج والنافذة: فالأول مثل للشخصية ساحة للركض، ومنحها مكانا للقاء بعض الناقمين على سياسة بروز كإيفا وسميث وتوني؛ إذ كان مدرج المطار القديم مكانا بعيدا عن شاشات بروز وإن لم يكن بعيدا كلية عن نطاق المراقبة. والثاني مثَّل تحول آدم للمراقبة على بعض أنشطة القلعة المشبوهة.

بل أحسب أن هذين المكانين من أهم الحوافز السردية المستغَلة لإحداث تحولات في أحداث الرواية فقد سمحا بتأزم العلاقة بين آدم وبروز وتصعيد الأحداث نحو

النهاية؛ وهو ما تكشف عن جزء منه الوقفة هنا ولو أنها مرتهنة بتوضيح أبعاد الثنائية المكانية.

سيلاحظ بداية أن الركض أمر يتكرر كثيرا في الرواية مقترنا بمحطات أزمات؛ وهو ما يكسبه بعدا رمزيا، إذ يمثل تطهرا نفسيا لأنه انفلات من القلعة ولحاق بأحلام تراوده عن "أمايا" المستقبل "ورماد" الماضي، فوق أنه يستل من آدم شحنة التأفف والكراهية للمكان، كما يتلبس بدلالات التفوق التي تضع آدم في مصاف الريادة لا بين أعدائه والناقمين عليه فقط بل بين أقرانه:" خفف آدم من سرعته. عندما لحق به سميث كان ريقه قد نشف وغرق في عرق بارد: ارحمني يا آد. قتلتني. من يستطيع أن يجاريك.. صدري ليس صدرك وأنفاسي ليست أنفاسك(...)

– هذه ثلاثة كيلومترات فقط. غدا سنرفع الوتيرة، ربما لخمسة.

– معناه أنك تريد أن تبقى وحدك. أنت بطل، أما نحن (كذا) مجرد أناس بسطاء أمامك.[الرواية:١٤٥– ١٤٧]. وسيلاحظ أنه بصفات الكمال والحركة يوضع آدم في مقابلة ضدية مع بروز، سيبوء بروز فيها بأقطابها السلبية: الكمال الجسدي والنقصان، الحركة والعجز، الانفلات والتجسس.

لأجل ذلك سنرى الركض يقترن كثيرا بذكر "رماد" الذئب الرامز بدوره إلى الأرومة الغائبة الحاضرة، والذي يعد ثيمة تتكرر بدورها هي الأخرى في مفاصل حيوية من الرواية:" أنت تجري وأنا أيضا أركض يا رماد على وتيرتك نفسها.. المهم أن نظل على الوتيرة نفسها يا رماد. أن لا نستسلم لقدر الموت. أن نسابق الريح. نتحدى المطر.

ندخل في عمق الزوبعة. الذي يموت فينا ليس الأجداد، ولكن الحاضر الذي لم يشبهنا في أي يوم من الأيام. كانت جدتي تقول إن الذئب رماد عندما يجري لا يلتفت وراءه...يا رماد لا تلتفت وراءك. لا قدر لنا يا رماد إلا أن نركض"[الرواية:٢١٣]

ويضعنا النقل السابق إزاء ثيمات مشبعة بالأبعاد الرامزة: "الذئب/الأصل، الركض/المسارعة، الاستسلام للموت/الاستسلام للحاضر، مسابقة الريح/تحدي الصعاب، اقتحام الزوابع/اقتحام الحاضر، عدم الالتفات إلى الوراء/الماضي.." وهي جلية في سياق التحدي وشحذ النفس ونبذ الاستسلام لما جرى به الحاضر من حاله حبيسا للقلعة.

وسنراه مرتبطا بالحركة التي اتخذت سبيلا للتخلص من وقع ما تعانيه الشخصية: "كلما ضاق نَفَسُه من محيطه زاد في وتيرة ركضه"/" عليك أن لا تسمع إلا لداخلك ولتقطُّعِ أنفاسك، وأن تدفع بها إلى حدودها القصوى. كل توقف هو نهاية للأنفاس اليتيمة التي تخزنها في أعماقك. كل شيء يتحدد في الأمتار الأخيرة. النجاح والفشل يرتسمان هناك. لكن أيضا كل مدار السباق تتحكم فيه لحظة البداية"[الرواية:١١٧/ ١١١]

وقد كان رجال القلعة على علم بما يمثله الركض والمدرج بالنسبة لآدم؛ ورد هذا على لسان كثيرين بما فيهم بروز نفسه[راجع الرواية: ١١١]، ومن ثم كان أحد مظاهر التضييق على آدم بنهاية الرواية إغلاق هذا المدرج؛ وعليه نكون بإزاء غياب للحرية مترتب على تغييب لأهم مفردات المكان. [راجع الرواية: ٣٥٥]

النافذة:

تعينت النافذة في حق آدم طاقًا للحياة؛ فقد كانت بداية بابا للتعرف على مكونات القلعة المحيطة بآدم [الرواية:٥٠]، ثم غدت بابه لمراقبة السماء بأمطارها ورعودها وصفائها كذلك، وهي صفحات من الطبيعة لطالما حملت آدم بعيدا عن كابوسية القلعة إلى حيث أصله ونشأته بالمغرب العربي: [الرواية:٤٢، ٨١]، ومتابعة بعض الأمور التي حجبها عنه بروز مثل طقوس تأبين سميث إثر مصرعه في هجمة للتنظيم: [الرواية:٣٨٧]، كما كانت بابا لترقب مجيء الأصدقاء لا سيما إيفا التي تحمل إليه أخبار السد وأهله: [الرواية:٢٢٥] أو رماد الذي يستمده القدرة على المقاومة والبقاء: [الرواية:٥٣، ٨١، ١٨٤].

وتتأسس النافذة فضاء سرديا دالا بدءا من إيثارها ضمن مكونات غلاف الرواية. وتموضعُها البارز ثمة يتحمل بعدين سيميائيين: أولهما الإرهاص بالحبس والسجن، وهذا البعد مؤسَّس بالنظر إلى القضبان الحديدية البارزة المتقاطعة التي تشغل فضاء النافذة، وهي بهذا تضع المتلقي على بداية المسار الذي ستتخذه الرواية وتشكل أفق توقعاته تجاهها، على أنها في الوقت ذاته تؤسس، وذلك هو البعد الثاني، معنى التوق إلى الانفلات وتنسم الحرية، لأنها تؤشر على موضع هذه الحرية وتُفْرِدُه وحده: النافذة، وتسمح لضوء النهار الأبيض أن يتخلل قضبانها نحو الداخل المظلم، بما يعمق معنى هذه المفردة المكانية خاصة من بين محتويات المكان العام: القلعة.

ثم هي بعد ذلك كله، وهذا هو الأهم في سياقنا هنا، المكان الذي منح آدم تبادل الدور مع بروز في قضية المراقبة والتجسس؛ فعبر هذه النافذة بدأ آدم يرصد بعض تحركات القلعة المشبوهة تجاه قضية بيع الأعضاء البشرية؛ وهو الأمر الذي يورط القلعة ورجالها بحسب الرواية أمام ضباط البحر الأحمر، وقد بلغ هذا الأمر من الأهمية ما حرم بروز من استحقاق رتبة ماريشال التي كانت هوسا نفسيا لديه؛ وكانت ضمن أسباب تسريحه من الخدمة والأمر بالانسحاب من القلعة نهائيا.[راجع الرواية:٢٧٠]

تتشكل النافذة إذن فضاء مهما بالنسبة لآدم لهذه الملابسات جميعا. ويستغلها آدم في سياق انفلاته من عين الرقيب ليتلبس هو بهذا الدور الذي لا يكتسب أهميته فقط من حيث وقوفه على ذلك النشاط غير الإنساني بقدر ما يكتسب أهميته من حيث يَقلِب ولو إلى حين ثنائية المراقِب والمراقَب وما تنطوي عليه من ثنائيات أخر على وزانها لصالح آدم الذي يظفر هذه المرة بدور الفاعل فيها.

وسيحرص السرد على بقائها لآدم تنهض بهذا الدور حتى حين يُضيَّق عليه بنهاية الرواية ويحرم من المدرج ومن المراقبة عبر نافذته؛ فبعد إطْلاعه الميجر "توني" على حقيقة ما يحدث سيزين له هذا الأخير أمر المراقبة، وسيُعَيِّن السرد نافذة أخرى فضاء لهذا الفعل أيضا:".. ينبهه الميجر توني. اتبعني، لنصعد معا الأدراج بهدوء، والتفِت وراءك بهدوء نحو مدخل القلعة ناحية المطار العسكري، وسأشرح لك قليلا. من وراء الشباك.." [الرواية:٣٩٢]

وعبر النافذة والمدرج تتوطد علاقة آدم بالميجر، وتستغل هذه الملابسات حافزا جديدا يحرك آدم نحو إطلاع الميجر توني بنية بروز أو نائبيه في قتله، لينقل الميجر الأمر لضباط البحر الأحمر، وسيقف آدم يواجه بروز بهذه الحقيقة دونما خشية:" أخبرتهما لأني منذ مقتل حواء مسمومة أصبحت حياتي في خطر.. وأخبرت الجهات المعنية أنه إذا وقع لي أي شيء الرجاء أن لا يبحثوا عن القاتل خارج القائمة التي سلمتها لهم"[الرواية:٤١٦]

وهكذا تتأهل النافذة نهاية لأن تتقاطب مع الشاشات فنكون بإزاء ثنائية من ضدين: الشاشات×النافذة، وكأن العلاقة بين الذات والحرية في الرواية تقاس بالنافذة، حين يقاس الحبس بشاشات التجسس.

وبرغم أن محاولات الانفلات التي مارسها آدم عبر إمكانات المكان قد لا تعني الكثير فإن تردي أحوال ليتل بروز بنهاية الرواية يزيد من حجمها، وسيكشف حوار دار بين آدم وبروز بنهاية الرواية مدى استغلال آدم هذه المساحة من الحرية التي أوجدها لنفسه، حتى لنراه يتمنى أماني سادية يعلنها صراحة بوجه بروز سادي الرواية الأكبر:" لا حلم لي الآن سوى أن أجلس مقابلا لك وأتأملك، وأرى وجهك الذي مزقه اللغم وشوهك حتى حولك إلى حيوان أسطوري بلا رحمة، حاقد على الكل.. ثم أستمتع وأنا أراك تُدخل في مثانتك ذلك الأنبوب الرقيق والمؤلم في فراغ حِجرك لتحرر البول المحتقن في مثانتك التي تنتفخ بسرعة. أرى فقط هذا الهرم الوهمي والكاذب، وهو يتمرغ كَلا شيء أمامي، يبحث فقط عمن يرحمه بطلقة رصاص في دماغه. تنبهني إلى المسدس

في درجك. لا أمنحك هذه الفرصة، لكنني أتمدد على السرير وأتأملك، تحاول أن تقوم لأخذ المسدس لتنتحر، أخطفه قبلك وأرميه من الطابق السابع، حيث تخفي رائحتك التي تشبه الجيفة، تتضور في مكانك.. تتمنى موتا لا يأتي..ولا تجد حتى من يغير حفاضاتك التي التصق بها خراك على مدار أسبوع، رائحتك العفنة التي هي خليط من فضلاتك وبولك وعرقك وحقدك الأعمى أيضا، أبعدت عنك حتى الذباب الذي عافك.. نفسي أراااك هكذا. قتلك لن يفيدني" [الرواية:٤٠٣- ٤٠٤]

٣ـ تعارض القوميات

تحت هذه البنية الصغرى الأخيرة تتقاطب أطراف القوميات والكيانات التي اجتمعت على أرض آرابيا، وتجمعها ثنائيات تميل غالبا إلى أن تكون نصا في التنافر الذي يصل إلى حد الاصطراع. وغيبة الحوار بين هذه الأطراف مأتاه استعلاء عنصري"أميروبا وآرابيا" أو تنافس على الأهداف وتعارض في المصالح "أميروبا والتنظيم" أو عدوانية متجذرة ورغبة في الإزاحة "أزاريا وآرابيا".

ويبدو أن آرابيا–أو ما بقي منها– لا تملك وسط هذه التعارضات والصراعات إلا الرفض الصامت، وهو رفض لا يتطور إلى مقاومة تدفع بها ما يقع عليها ممن حولها من قوميات متعددة تتوسع على حسابها، ولن تملك حتى الحوار معها للجدال بأحقيتها نتيجة الاستعلاء العنصري الذي تمارسه تلك القوميات أو العدوانية التي تتمتع بها.

١/٣ أميروبا×التنظيم: سِباق النفعية

بداية هل تنطبق على التنظيم صفة القومية كي يسلك ههنا؟ ربما يجاب عن هذا بأنه قام بإزاحة القومية العربية التي هي آرابيا أو كان أحد أهم أسباب إزاحتها وسلك نفسه مسلكها وحمَل القوى المتاخمة له على الاعتراف بهذا، فقد بسط نفسه حسب الرواية على مساحة كبيرة من بلاد العرب كما ملك من أسباب القوة ما مكنه من الصراع وتلقي الضربات وإنفاذها في الآن نفسه على ما ستكشف عنه ثنائياتنا هنا.

إذا كان لفظ "أميروبا" قد استحضر علما على المكان/القلعة سابقا فإنه مستحضر ههنا علما على قومية تجمع الجناحين الأمريكي والأوروبي، هي نموذج مصغر لما يعرف اليوم بمصطلح "الغرب". وأما لفظ "التنظيم" فهو بديل لما يعرف اليوم بتنظيم الدولة الإسلامية وما يعادلها، وإن كان الأَولى تعميمه على كل انحرافات دينية في المنطقة بشرط أن تتعارض مصالحها مع المصلحة الغربية من المنطقة.

ومن ثم يتأكد ههنا أمران: أولهما أن الصراع الواقع بين هذين الطرفين لا يقع إلا في سياق تعارض المصالح، وذلك بأن يستفحل الطرف الثاني/التنظيم، ويستهدف مستشعرا كيانه الأهداف ذاتها التي تقع في نطاق مستهدفات الطرف الأول، وساعتها لم يكن بد من اصطدام تَضخُّمِه بإمبريالية أميروبا. وثاني الأمرين هو أن التنظيم لا يمثل العرب وإن كان ممثلوه عربا.

أهم مسببات الصراع:

يفترض أن يكون الإرهاب أهم مسببات الصراع بين الكيانين، والإرهاب متلبس به كيان التنظيم، وتعممه عنصرية بروز على العرب جميعا؛ فـ" كل آرابي إرهابي حتى يثبت العكس!"[الرواية:١٧٦]، وسنرى للكوربو بدوره رأيا آخر في مسببات هذا الصراع بين الكيانين:" أنا أحرر أرضا مقدسة من خبائث البشر، وهم من وَسَّخها، اسأل نفسك فقط سؤالا واحدا: من أين جاؤوا؟ ماذا يفعلون عندنا؟ هل تعلم كم قتلوا في آرابيا منذ أن دخلوا إلى العراق؟" [الرواية:٣٠٥]، وهو رأي يتحرك بعقيدة تستغل خطأ موقف أميروبا من العرب لتسحب مشروعية على دورها التخريبي، ويتخفى تحت غطاء جهاد أعداء الدين، وهو بهذا الطرح يعني أن ما يفعله تجاهها ليس إلا ردا للفعل لا ابتداء له، ورفعا للجهاد لا إفشاء للإرهاب وطردا للغزاة لا قتلا للأبرياء!

على أن التنظيم لن تصارعه أميروبا إلا حين يقع هذا الإرهاب عليها ويهدد مصالحها، وهنا تخف لمواجهته بشتى السبل: عسكريا بوجودها داخل المنطقة ثم بضرب عناصر داخل التنظيم لا سيما سيف، وعلميا بتهيئة آدم لإنجاز بحثه عن قنبلة الجيب.

ومن ثم يمكن القول بإجمال: إن قوة التنظيم الآخذة في الازدياد هي ما يقف وراء الصراع الذي كان طرفا فيه مع أميروبا، دون تجاهل كذلك لعقيدة تقول بأن الكراهية بادئة أولا من كون أفراد التنظيم عربا.

وعلى هذا يمكن احتساب التوسع مع الوصف بالإرهاب من أهم مسببات هذا الصدام؛ توسع التنظيم بسيطرته على مناطق متعددة من آرابيا :"اتسع ليشمل صحراء الربع الخالي كلها، وبقايا آرابيا الشرقية والغربية والجنوبية" [الرواية:١٧٤]، وهو توسع كما أسلفت يصطدم بإمبريالية أميروبا وينازعها سيطرتها على موارد آرابيا:" الكثير ممن يعرفون المنطقة، يؤكدون أنه هو–أي التنظيم– أيضا من يشرف على بيع النفط، في بعض مناطق آرابيا التي يسيطر عليها"[الرواية: ٣٥٢]

ومن ثم تدشن أميروبا تجربة آدم وتسعى إلى تملكها بالحصول على آدم نفسه. وساعتئذ يتهيأ الاختطاف سياقا ثالثا يحتم صدام الكيانين؛ ذلك أن أميروبا تزعم ملكية علماء مثل آدم، وحين يعي الكوربو خطر آدم إذا ما استولت عليه أميروبا فإنه يسعى إلى قطع الطريق عليها باختطافه للتقوي بمشروعه أو لقتله وحرمان أميروبا من التفوق العسكري الذي ستبلغه بحصولها عليه. [راجع الرواية:١٠٠]

تتعدد الأسباب إذن، ويتعذر رد هذا الصراع بحال إلى سبب واحد، خاصة ذلك الذي يُحاج بأسباب إفساد أميروبا في المنطقة، وهو تلبيس يُمارَس تحته أبشع الجرائم باسم الدين والقومية والجهاد، دون تفرقة بين عربي وأجنبي:" ستعرف جديتي عندما نحرق قاعدة اليهود والمسحيين والمسلمين الكفرة. ستحرقون فيها كالجرذان." [الرواية:٣٠٤]

وكذب الكوربو نهاية يعادل كذب الكيان المناظر أميروبا من أن وجودها في المنطقة إنما هو رعاية لمصلحة العرب والإنسانية ورغبة في القضاء على مثل تلك التنظيمات الإرهابية التي عجز العرب عن القضاء عليها؛ وبيّن أن هذا ستار كذلك تمارس باسمه عديد من التدخلات في شئون الآخرين ويسيطر به على الثروات والمعابر الجغرافية المهمة التي تربط شقي الكرة الأرضية.

وكعادة مثل تلك الكيانات النفعية(Pragmatic) أن تجتمع على سياقات غير إنسانية سنرى سياقا وحيدا غير صدامي يتولد بينهما، وهو سياق يسمح بتبادل المنفعة على حساب طرف ثالث يقع فريسة للطرفين: العرب، وهو ما كشفت عنه الرواية عبر تورط أميروبا والتنظيم في تجارة الأعضاء البشرية؛ فيما يكشف عن سادية وشيئية في آن معا، سادية هي من حظ الطرفين وشيئية واقعة على الطرف الثالث.

ويكتسب التنظيم بتحركاته ضد أميروبا ونيله منها في غير سياق دور الفاعل المضاد لأميروبا في تلك الثنائية، غير أن صراعاته ومكاسبه التي يحققها ليست محسوبة لصالح العرب بحال، ولهذا لا تُحسِّن من وضعهم ولا تسهم في تشكيل قوميتهم الذاهبة، أو تصنع لهم كيانا مناظرا قادرا على أن يحاور الآخر ويدفع عن نفسه. إنه يظل فاعلا جزئيا تحركه مطامح براجماتية خاصة لا قومية عامة وإن ادعى غير ذلك. وهو بهذه العقيدة وهذه التحركات على أرض الواقع لا يختلف عن أميروبا في شيء إذ يجمعهما سباق النفعية المنصوب بينهما على حساب العرب.

٢/٣ أميروبا×آرابيا: مآلات دونية، وصراع سلبي

الثنائية الكبرى الجامعة هنا والمعبرة عن الفريقين هي الفوقية والدونية superiority× inferiority ، وعنها تتفرع ثنائيات أخر؛ وسيتركز الحديث هنا على ما هو معنوي نفسي منها؛ إذ كان لثنائية الديستوبي واليوتوبي تناول ما هو حسي من خراب ودمار وانقراض.

والعلاقة التي تربط هذين القطبين بداية لم تكن علاقة صراع بيِّن متكافئٍ وإن كان محتدما، فهو غير بيِّن لكون الكيانين غير متكافئين قوة، فوق أن أميروبا تتقنع بقناع الراعي للمصلحة والإنسانية، وهو محتدم لأن أيا من الكيانين لم يقبل الآخر، ولسوف تتوارى العلاقة الحقيقية بين هذين الطرفين تحت كثافة ذلك القناع، وسيُرتهَن ظهور الوجه الحقيقي لها تبعا لكثافة هذا القناع أو شفوفه.

وبرغم وجود أميروبا بأرض العرب فإنها تحتفظ بأن تظل العلاقة على الأطراف؛ فالتعامل يتم عبر أسلاك كهربائية وكلاب حراسة وجنود وأسوار وكاميرات، ولا يتأول ذلك بالخوف من بطش العرب المحيطين بالقلعة أو المرتحلين حولها بقدر ما يؤكد حظهم من الضعة وافتقادهم احترام الآخر ويشير إلى تجنب وترفع من الآخر. ويتجلى هذا المعنى عبر مفاصل من الرواية لعل أجلاها مشهد إطعام أميروبا بقايا الآرابيين المحيطين بالقلعة؛ حيث التفاوت الجلي بين الفوقية والدونية التي تلبس بها كل من المعسكرين باقتدار، ثم بين الإنسانية المفقودة والشيئية المتحققة بامتياز. [راجع الرواية:٦٧]

ويمكن تركيز أهم ما يكشف عن هذه العلاقة من ناحية تجلياتها المعنوية فيما يأتي:

١/٢/٣ العنصرية

إذا كنا قد ألممنا بأن العرب مُنُوا بهذا الحظ الدوني في الرواية وحكم على تصارعهم مع الآخر بالاستتار فإن ما يمثلهم من أقطاب هذه الثنائيات غالبا سيكون في حكم الغائب؛ غير أنه غائب لفظا حاضر خطابا وسياقا. والعنصرية من أجلى هذه الأقطاب، وهي ملمح من ملامح أميروبا استشرى وجودها في الرواية، وقد مثلها "بروز" باقتدار ثم نائباه المواليان لأزاريا من بعد.

وعنصرية بروز مورست ضد العرب خاصة، لكونهم عربا ثم تزيد مسببات هذه العنصرية لدى بروز خاصة حين تقدمه بمركبات نقص نفسية سبقت الإشارة إليها. بل إن عنصريته ضد العرب لتتجلى حين يحاول الأطباء زراعة عضو ذكري له! " فقد اشترط أن لا يكون العضو المزروع لشخص آرابي أو أسود كيفما كانت ديانته، وليست به أية علامة ختان على الطريقة الإسلامية تحديدا"! [الرواية:٢٢٩]؛ وتكتسب عملية زراعة العضو العربي دلالة رمزية حتى إنه يرتد بمسألة شخصية إلى حديث عن العرقين العربي والغربي؛ فقد انتفض في وجوه الأطباء:" صارخا: لماذا؟ هل نحن ضعاف وحاويين(كذا) إلى هذه الدرجة؟" [الرواية:٢٤٤]

ثم تتسع رقعة الدلالة الرمزية لتخرج عن نطاق بروز وأزمة العضو الجسدي إلى نطاق الغربي والعربي والعنصرية التي يجب أن يمارسها الأول ضد الآخر؛ نسمع هذا

على لسان بروز ونائبيه:" البيغ بروذر لا يعرف شيئا. لقد تفسخ وترك البلاد أيضا تتفكك بين الأوروبيين واللاتينو والسود. لابد من العودة إلى الصفاء العرقي إذا أردنا أن نستمر"[الرواية: ٤٣٠]

وترتد فكرة الصفاء العرقي أو "الاستعراق" في جانبها السلبي إلى التعصب المحض للعرق بحسبانه وحده صاحب الأفضلية المطلقة، وهي قضية متاخمة لفكرة المركزية والهامش، مركزية العرق المنتمي إليه المؤمن بهذه النظرة وقياس الأعراق الأخرى كهوامش بالنسبة إلى مركزيته، وسيتولد عن هذا الفكر أزمات ومشاكل إنسانية تبدأ من التعصب والإقصاء وتنتهي بحروب الإبادة[٢٢].

والصفاء العرقي المنشود هنا يعيد إلى أذهاننا ثلاثية "أوقيانا وأوراسيا وأستاسيا"؛ وهي الدول العظمى الثلاثة التي اقتسمت العالم في أعقاب سقوط الرأسمالية وانتصار الاشتراكية بمفهوم أورويل في روايته ١٩٨٤. وهي فيدراليات ضمت صفاء عرقيا لا بمعنى الأجناس البشرية فقط بل كان صفاء مرده اعتناق أفكار أيديولوجية واحدة يؤمن بها أهل كل كيان إلى حد الموت والوشاية بمن يخالفها، وقد اعتاشت هذه الكيانات بلا حروب كراهية حقيقية بينها بل بتنازع على بسط مناطق النفوذ، التي مثلتها منطقة الشرق الأوسط وبعض مناطق أفريقية أخرى وهي مناطق زاخرة بالمادة الخام ووفرة في الأيدي العاملة، كما أنها تمثل أعراقا وأجناسا مهملة لا حظ لها من تقدم او إنسانية[٢٣]. ونشدان هذا الصفاء العرقي يتم حسب "بروز" بالعودة إلى ترسيم حدود بين كيانات تستحق الحياة كالقوى العظمى: أميروبا وآزاريا وغيرها وإهمال أجناس أخرى لا تمثل

شيئا كآرابيا. ومن ثم كان ذكر بيج بروزر ديكتاتور أوقيانا والمحافظ على وحدتها العرقية التي يفتقدها بروز الآن.

وفي اعتقاد بروز أن :" هتلر كان البيغ بروزر الوحيد الذي عرف كيف يحافظ على نقاء الجنس والعرق"[الرواية: ٤٣١]

وكفى بذكر هاتين الشخصيتين: الواقعية "هتلر" والجمالية" بيج بروزر" دليلا على تمام العنصرية التي وصمت مثل هاتين الشخصيتين تجاه أعراق بشرية وقوميات أخرى.

كما تعد الشعارات التي ما فتئ بروز يرددها ويجعلها عنوانا لفيدرالية الغرب أحد مجالِي هذه العنصرية ضد العرب، ولعل أجلاها شعار: "العربي الجيد هو العربي الميت". وهو شعار ينضح بها، وقد علقه بروز على أبواب القلعة ثم أزيل، ثم انتوى تعليقه ثانية بعد أن قرر أن:" كل الحروب سببها آرابيا، حتى وهي حطب مشتعل وغبار متناثر في الجبال.. لم يعد ليتل بروز يخفيها أبدا. قيل حتى إنه سيعيد الشعار العنصري إلى واجهة القلعة، وهذه المرة سيكتبه بالحروف المضاءة التي ترى من بعيد: العربي الجيد هو العربي الميت. يقال أيضا إن مستشارَيْهِ كانا من المتحمسين لهذا الفعل، فأيداه واعتبراه إجراء ثوريا، لكن طلبا منه التريث حتى يتم التخلص من العربي الأخير".[الرواية:٢٢٧ ٢٢٨]

وقد برزت هذه الشعارات وتكررت كثيرا بالرواية فلعبت دورا شبيها بدور النص المحاذي، وهي امتداد لصنيع أورويل بروايته كذلك.

والواقع أن هذه العنصرية الممارَسة ضد العرب وإن باء بروز هنا بإثمها الأكبر فإنها ليست خاصة به وحده، بل تنسحب على أهل أميروبا ممثلي الفيدرالية جميعا في تعاملهم مع العنصر العربي خاصة، وهو واقع ليست الرواية بحاجة للتصريح به. وإن كشفت عنه في غير سياق:" المسألة لم تكن مزاجا فرديا لليتل بروز فقط، ولكن فعل جماعي لإذلال المقيمين من أصول أرابيا المنتمين للتنظيم أو المشكوك فيهم".[الرواية:٤٨]

إن المقابل الضدي للعنصرية بهذا المستوى هو تفعيل سنة التعايش الإنساني ونبذ ما هو ذاتي أناني في سبيل تحقيق ما هو إنساني عام؛ وهذا لا يمثله بروز بحال وإن ردد عنه بعض نوابه هذا، ولا تمثله أميروبا وإن ادعوا أن بقاءها في أرض العرب يستهدف ذلك. إنما يمثله آدم بابتعاده عن التعصب لعنصره وعمله على أبحاثه التي يستهدف من ورائها فيما يرى تخفيض مشاكل السلاح النووي. كما أنه بطول الرواية يجادل عنها لا سيما في حواراته مع بروز:" في القرون الوسطى.. قررت محاكم التفتيش المقدس رسم علامة نجمة داود على صدر كل يهودي. وكررها هتلر حينما فرض على اليهود حمل نجمة صفراء تجعلهم مميزين عن غيرهم من الأقوام الأخرى. يبدو يا سيدي الماريشال أن البشرية لم تتعلم إلا قليلا من تاريخها".[الرواية:١٠٦، ١٠٧]

غير أن العرب بوقوعهم تحت القطب الذي يحظى بالدور السلبي في الرواية لم يكن منهم رد على هذه العنصرية، والرد لم تغيبه عقيدة عربية تؤمن بأفكار الاستعراق

ذاتها وتسعى إلى فرض مركزيتها ضد أجناس أخرى؛ بل يغيبه غياب هذه القومية ابتداء. ولربما شكلت غيبة العرب هنا خللا في التوازن المجتمعي على مستوى أبعد من القومية العربية ذاتها؛ لابتعاد عقيدة العرب غالبا عن الإيمان بعقيدة الاستعراق تلك.

٢/٢/٣ السادية والتشييء:

كما مورست العنصرية ضد آرابيا مورست ضدهم كذلك السادية وكان من أجلى آثارها تشييء واقع على أفرادها كذلك، ومن هنا كان الربط بين هاتين الظاهرتين؛ السادية بما هي تلذذ بالتعذيب والقتل مارسته أميروبا، والتشييء بما هو تنكر لإنسانية الإنسان ومعاملته معاملة الأشياء أو ربما أقل[٢٤]، وسادية الرواية يؤصل لها بروز بشعاره الكبير السابق:" العربي الجيد هو العربي الميت"[٢٥]، ويردها آدم لطبائع غير سوية في البشر:" شيء ما تصنعه الأقدار.. وتُسخر له بشرا ينفذونه بالطريقة التي ترويهم داخليا، وتشفي غليلا معاندا ينام فيهم منذ زمن بعيد"[الرواية:٣٥٨]

وأظهر سياقات السادية والتشييء التي مورست ضد آرابيا هو سياق <u>الاتجار في أعضائهم</u>:" أعضاء هؤلاء البؤساء تباع وتشترى عند بوابة القلعة(...)ثلاث حالات حية، دخلوا بكل أعضائهم خرجوا مبتورين منها. ولم يغادر أهاليهم المكان حتى سحبوا معهم مرضاهم.. معظمهم يموتون بعد أيام في غياب الأدوية"[الرواية:٣٤٧]

وكأن الإنسان–العربي خاصة– غدا شيئا قابلا للتقطيع والانتفاع بأجزائه! سواء كان ممن قدمت لهم القلعة العناية الطبية ومارست هذا الفعل تحت هذا الغطاء، أو كانوا–

وذلك أشد بشاعة– من الذين" يتم اختطافهم أو قتلهم وانتزاع أعضائهم وفق عملية يشترك فيها حتى الأطباء"[الرواية:٣٥٢]

وهو أمر اشتد خطره:" منذ مجيء نائبي ليتل بروز الجديدين، اللذين قاما بتصفية كل من يمكنه أن يراقبهما أو يقف ضدهما ويفضحهما"[راجع الرواية:٣٤٩]، وسادية هذين الرجلين فاقت سادية بروز نفسه؛ وقد قدمتهما الرواية مبغضين لآرابيا بانتمائهما العقدي لأزاريا أو ميلهما الفكري إليها أو لما يدره ذلك من مكاسب مادية. ومن ثم مردوا على فعل ذلك بعنصرية وسادية بغيضة، وهاهما يقفان نادمين على انقضاء هذه التجارة إثر هجرهم القلعة:" الذين يحملون اليوم كِلية من آرابيا الشرقية، أو عينين من آرابيا الغربية، أو قلبا من آرابيا الوسطى، أو كبدا صوماليا، رئة وأمعاء من الصحراء، أو عضوا إفريقيا(...) بأثمان تافهة مددت طويلا في حياتهم. سيعرفون عندما يخسرون ذلك كله"[الرواية:٤٢٠]

وقد كانت عقيدة القائمين بهذه الفعال عقيدة من يمتلك، ومن ثم كانت نظرتهم إلى الآرابيين نظرة إلى الشيء الممتلَك! ولم يكن التكتم من قبل جنرالات القلعة ترددا في هذه العقيدة أو استشعارا بالجرم؛ بل كان خوفا من افتضاح الأمر عند ضباط البحر الأحمر الذين يأتمر بروز بأمرهم، فيحرم من رتبة ماريشال قبل تقاعده.

ومما يمشي في هذا السياق كذلك تجريب النووي بأرض العرب، وبلوغ الأضرار عربا رُحَّلا. واستغلال أمريكا حروبها وأراضي غير أراضيها لتجريب أسلحة وتجارب بيولوجية وكيماوية جديدة أمر جرى به الواقع، وهو معبر عن قمة السادية التي تفترض

في أجناس بعينها كونهم فئران تجارب. وحين يراجع آدم بروز وغيره من جنرالات القلعة بشأن إيقاف إحدى القنبلتين لأضرارها يصطدم بعقيدة سادية لا ترى مشكلة من وقوع ضحايا من العرب المحيطين:" قد تنحرف القنبلة عن مركز التنفيذ بأمتار كثيرة، وأحيانا كيلومترات، لا يعني الإنسانُ فيها الشيءَ الكثيرَ. ولا يهم إذا كان من وراء هذه الانحرافات الآلاف من ضحايا الصدفة"[الرواية:٣١٤]

ومنه كذلك مشهد قتل عرب أميروبا مساجين وخدما ومقيمين بتسميمهم بالقلعة قبل إخلائها وتسريح بعضهم ليلاقوا حتفهم أمام التنظيم الذي سيرميهم بالخيانة:" لن أثقل بهم الطائرات الأمريكية. الوكالات الدولية ستعرف أننا غادرنا وأننا أطلقنا سراح كل المساجين، لأنه لا مكان لهم في الطائرات، وأن التنظيم كالعادة قام بمجازره.. لا يوجد ما يناقض القانون.. ولدوا في الرمال ويموتون فيها"/" توغل عميقا في أحد أجنحة بيوت المقيمين. وجد جثثا مكدسة بعضها فوق بعضها الآخر وروائحها قوية. كأنها قتلت بغازات سامة. فأفواهها كانت مفتوحة وأيديها يابسة على حلوقها.. الجثث كلها أبيدت بغازات سامة" [الرواية:٤٢٤/ ٤٢٦]

ثم يجيء المشهد الأخير مشهد تفجير القلعة الفوضوي بما يخلط من أبرياء وموالين للتنظيم بغتهم الانفجار وطحنهم التدمير:" فجأة بدأت أمواج البشر تخرج من وراء الرمال بقوة. بالمئات. بالآلاف. يركضون في حركة هيستيرية...سمع تمتمة القائد: كلهم متشابهون في النهاية. المجرم والذي يبدو بريئا. العربي الجيد في النهاية هو العربي الميت. سأل الموظف مرة أخرى قائد الطائرة: كل شيء في مرماي سيدي.

أضعط؟ هز القائد رأسه للمرة الأخيرة بالإيجاب. لم يسمع الانفجار، ولكنه رأى نارا حارقة صعدت من عمق الساحة فتطايرت الحجارة والأجساد، بالمئات عاليا في حالة تمزق قصوى"[الرواية بتصرف: ٤٢٨، ٤٢٩]

وأكثر هؤلاء الداخلين إلى القلعة هم من العرب البدو الذين يبحثون في القلعة عن طعام ومأوى وإن كانوا قد اختلطوا بغيرهم من رجال التنظيم. وقتل سجناء القلعة حادثة تذكرنا بنظائرها مما قصه أورويل على لسان ونستون مُدينا به نظام الحزب في أوقيانا. وهو من الوشائج والجسور الممتدة بين العملين.

والتشييء متجسد هنا في احتساب هذا الجنس شيئا يمتلك، شيئا يمكن تبادله وتسخيره للتجريب، شيئا لا يملك حق مصيره، وقد امتلكه هؤلاء ومارسوا عليه حق التبادل بالمال واستعملوه استعمال فأر التجارب، وقرروا هم مصيره ابتداء وانتهاء. ولربما كان واقع العرب أنفسهم مُسوِّلا ذلك وداعيا إليه، فقد قدمتهم الرواية جنسا في طريقه للانقراض، جنسا قابلا لأن يمارس ضده تلك الممارسات بل وأبشع منها دونما حراك من أحد.

وستقع على آدم بحكم أنه في النهاية أحد أفراد آرابيا تلك المعاملة كذلك، وهو سياق يبدأ منذ وقوعه طريدة تتنازعها أطراف ثلاثة: أميروبا والتنظيم وأزاريا؛ كل يريد حق تملكه ويبذل لقاء ذلك مناورات وتدابير واغتيالات؛ يعبر آدم عن هذه النظرة بعبارة موجزة تحمل وطأة الشعور بافتقاد الإنسانية:" لا يمكن أن يتحول الإنسان من عالم إلى طريدة"!![الرواية: ٩٨]. ثم عبر عدد من الممارسات اتخذت ضده بالقلعة يمكن ردها

اختصارا إلى رفض القلعة استقلاله الذاتي، عبر التلصص عليه "ليس بعيدا عن مساحته الحميمية، غرفة نومه والتواليت"[الرواية:٢٤٣]، والقفز إلى تفكيره وشروده عبر الشريحة الإلكترونية المدسوسة في ساعده، وقتل السلحفاة حواء شريكة غرفته، إذ حمل قتلها رسالة منهم أرادوا منها التأكيد له على تمكنهم منه في أي وقت يشاءون[راجع الرواية٤٠٤]، بل يمارسها أحد ضباط القلعة وهو يتمنى بانحراف جنسي واضح لو خلي بينه وبين آدم ليتحرش به ثم يتلذذ برميه:" من أعالي المروحية نحو البحر. أتلذذ وأنا أراه يتهاوى كالكيس الثقيل، ألم يقولوا إن العربي الجيد هو العربي الميت؟ أنا إذن من يعطيه فرصة الموت ليصبح جيدا"[الرواية: ١٠٢]، وغير ذلك كثير من معاملات يقف على قمتها شعار ظلت الشاشات تردده مرارا: "بروز هو فيكم"، وهي في مجملها تسلب عن الإنسان أقل حقوقه وتمنحهم في الوقت عينه حق تملكه ورخصة التدخل في شئونه وقتما يشاءون.

ولن يناهض هذه الشيئية والسادية من قبل العرب إلا آدم الذي يمثل سياق الرفض العربي الوحيد في حدود ما أتيح لشخصيته روائيا؛ يتجسد ذلك في رفضه نوع المعاملة أولا:" لماذا اختطافي ونقلي على مدار أكثر من شهرين بين أمكنة لا أعرفها، مغمض العينين؟"، ثم طلبه أمورا تخص إنسانيته:" أريد تطبيق الحق في مزاولة الرياضة والجري، وهذا ليس ممنوعا قانونيا في القلعة. ورفيقة عمر، أجابه ليتل بروز على الشاشة.. الرياضة ممكن، لكن الطلب الثاني صعب جدا.. أنت تعرف يا آدم أن رفقة النساء ممنوعة في هذا المكان؟ لم يستطع آدم أن يكتم ابتسامته.. ومن تحدث عن

المرأة يا سيدي؟ أريد سلحفاة فقط"[الرواية:١٠١/١٢٤]، ثم عبر رعايته لحواء سلحفاته التي كانت رمزا داخل الرواية– بما تحويه ثيمة السلحفاة– على المقاومة، ثم قيامه من بعدُ على دفنها بعد تسميمها؛ في مشهد ينطق بأبلغ آيات الإنسانية؛ إذ كان ذلك في وقت يحرص كل من بالقلعة على اللحاق بالطائرات لإخلاء القلعة. [راجع الرواية: ٤١٣]

ومشهد الاعتناء بالحيوان هذا لا يتقابل فقط مع مشهد تسميم بروز للسلحفاة واستشفائه من آدم في حواره بهذا الفعل؛ بل مع مشاهد بروز السابقة جميعا التي وقعت منها تجاه الإنسان قبل الحيوان.

ولعلنا نستحضر حوار آدم السابق مع بروز الذي تحلى به آدم بجرعة كبيرة من السادية، وقد طفح به الكيل من ممارسات بروز ضده[راجع الرواية:٤٠٣]؛ وهي سادية إن لم تتخط حدود اللفظ والأمنية فإنها مثلت استشفاء لشخص آدم أمام بروز سادي الرواية الأكبر، كما جسدت صوتا مناوئا لهذه الممارسات، وإن لم تكن منه إفادة على طريق إيقافها ضد آرابيا، وهو أمر لم يكن من مطامح الرواية في ظل رؤيتها الكابوسية للمشهد العربي.

وستناهض إيفا بدورها هذه الممارسات كذلك، وهي وإن دخلت عالم الرواية بأصولها الأوربية فإنها كانت أميل إلى العرب مذ ظهرت واكتمل بها فكر آدم وشخصيته بدءا من اسمها الذي هو المقابل الأجنبي للفظة "حواء"، وانتهاء باعتزامها البقاء بين عرب السد وعدم العودة إلى موطنها السويد، ومن ثم فإنها تقوم بدور الراعي

لهذا الجنس ورد الاعتبار له بعد أن قطع به الأعداء من داخل العرب أنفسهم ومن خارجهم أشواطا نحو اللاآدمية؛ وهو دور غاب من يقوم به من العرب أنفسهم لاتضاع شأنهم وذهاب أمرهم.

على أنه لا يمكن احتساب ما عرف به التنظيم من تقتيل وحشي وسادية مارسها تجاه أعدائها من أميروبا ردا على هذه الممارسات، بقدر ما هي وحشية جبل عليها أولئك المنحرفون طبيعة، وعليه فإنهم ينضمون إلى السادية الوحشية التي هي جرائم ضد الإنسانية عامة أيا كان نوع من تمارس ضده أو لونه. وليست رد فعل مورس باسم الإنسانية كي تتعادل أقطاب الثنائية وتتحقق تعادلية غائبة رادعة لكل من يمارس سادية نتيجة خشيته أن تمارس ضده يوما[راجع مواضع من سادية التنظيم: ٢٥١، ٣٠٥، ٢٧٢، ٢٣٣، ٢٠١، ٢٠٦، ٢٥٨، ٣٨٣]

٣/٣ آزاريا × آرابيا

سيمثل العرب هنا آدم بامتياز لأن الصدام ههنا لا يدور حول القضية الأولى بين العرب والكيان الصهيوني: قضية الأرض، بل على القضية التالية المتاخمة لها دوما: قضية امتلاك إسرائيل لرءوس نووية في منطقة منزوعة السلاح النووي، وهي القضية التي غبن فيها العرب غبنا شديدا أو غبنوا هم فيها أنفسهم وحظيت فيها إسرائيل بالمساندة من الكيانات الكبرى على تنفيذ مشروعها النووي[٢٦]، ومن ثم فإن آدم ههنا يمثل العرب بجدارة في هذه الثنائية من حيث كان عالم فيزياء نووية، وعليه سيدور الصراع الذي لم تشغل الرواية نفسها بالتشقيق فيه كثيرا.

إن سياق النووي وقضية حق امتلاكه تظل من أهم مشاكل المنطقة بين العرب والكيان الصهيوني، ويبدو أن الرواية ترى أنها ستظل مستقبلا على ما هي عليه من الكيل بمكيالين مختلفين: السماح لبعض الكيانات بحق امتلاكه ورفض حق امتلاكه لآخرين؛ ذلك الرفض الذي يصل إلى حد المحاربة بل والإبادة الكاملة لأنظمة وشعوب تحت ستار حجج أخرى.

وهذا السياق الواقعي ينفتح على واقع الرواية الجمالي عبر آدم؛ بحكم أنه ممثل العرب من زاوية وممثل علوم الفيزياء النووية من جهة أخرى، وفي معمل الأبحاث ببنسلفاينا تضغط كيانات تنتمي إلى آزاريا لكي يُوقِّع آدم وثيقة حق امتلاك أزاريا لسلاح نووي في منطقة يفترض أنها خالية جميعا منه، بل ويتشكل تكتل ضده يطالب العلماء الأمريكان بضرورة طرده:" كان سميث وكاميو الفينزويلي وغيرهما يرون أن التوقيع مسألة طبيعية، تخص الفرد نفسه. لكن ليفي شميت وأربعة من أصدقائه في المخبر، كان لهم رأي آخر: لا أدري لماذا إدانة أزاريا وكأنها هي التي تهدد العالم وليس الإرهاب الإسلامي؟ لم تفعل شيئا سوى محاولة ضمان سلامتها وسط عدوانية آرابيا. علق آدم.. يا ليفي، أزاريا كما بقية الدول الأخرى، يجب أن تقبل الرقابة النووية أو تجبر على ذلك. وتشكل لوبي صغير يومها داخل المخبر، طالب بطرد آدم بتهمة معاداة السامية، لكن أغلبية باحثي المخبر رفضوا ذلك"[الرواية:١٧٩]

ويبدو أن آدم لم يكتف بما دار خلال اللقاء السابق؛ بل كانت له مشاركة كذلك في إحدى بعثات الأمم المتحدة للحوار مع الدول النووية، وقد:" رفضت آزاريا بحجة

عدم حياديتنا في الموضوع...لأننا يومها اقترحنا مع مجموعة من الخبراء النوويين، وضع منطقة آرابيا كلها تحت رقابة دولية، وتوفير الحماية للكل، وهذا يطرد الخوف، ويدفع بالناس في التفكير في عالم أجمل. الآخر الخائف منك، عندما يراك قد امتلكت سلاحا نوويا، سيفعل الشيء نفسه في أول فرصة"[الرواية:٢٦١]

بل ويحاج آدم عن آرابيا أنه كان ينبغي لها أن تمتلك سلاحها النووي مادامت أزاريا تسوغ لنفسها امتلاكه وذلك في حوار مع صديقه سميث:"

- من حق الضعيف أن يخاف.
- ومن حق المهزوم أيضا أن يخاف"[الرواية:٢٦١]

ومراد سميث بالضعيف أزاريا؛ وهي الحجة التي طالما احتجت بها إسرائيل، ويعارضها آدم بحجة من جنسها، وهي أن العرب مهزومون ومن حقهم أن يخافوا بطش المنتصر، فيكون التفكير في امتلاك النووي على وزان ما تدعي إسرائيل من أنها سعت إليه مدفوعة بحجة أنها ضعيفة وسط إرهابيين.

ولأجل هذا كله فإن أزاريا مهتمة بمراقبة آرابيا لئلا ينشط فيها عالم يرفع من شأنهم في ناحية التقدم العسكري، ومن هنا كان حرصهم على اختطاف آدم": فصراع المائة سنة بين آرابيا وأزاريا جعله الطريدة النموذجية"[الرواية:٢٣]، ويتساءل آدم عن حقيقة تورط أزاريا في اختطافه وتواطؤ الجهات الأمنية بفرنسا في عدم القبض عليهم:" نفسي فقط أعرف الجهة الأخرى التي فرت من المطار. صورة السيارة موجودة، وأعتقد أن الأمن يكون قد ألقى القبض عليها، مادام يعرف التفاصيل سلفا.

– أفترض هذا أيضا. قد تكون مخابرات أزاريا. هي التي درجت على اغتيال علماء آرابيا، وإن لم تعترف. لا تريد أن تتكرر عملية الهند وباكستان. فهي تشعر في كل دولة مسلمة بخطر يتهددها[الرواية:٢٥٩]

وهذه قضية ليست روائية جمالية فحسب بل هي واقع معيش، وصراع مستمر بين الكيانين، وإن اتخذ مظهرا دبلوماسيا يدار بالمؤتمرات، كمؤتمر مدريد في تسعينيات القرن المنصرم.

تركيب

مخرجات الثنائيات والبنية العامة للرواية

مثلت البنى الصغرى السابقة كما مر بؤرا بنيوية أمكن اعتبارها شبكة دلالية شملت أهم مسارات الرواية، وقد استقطبت إليها ما يزيد على ثماني ثنائيات كبرى. وبالنظر إلى حركة أقطاب الثنائيات وتوزعها علائقيا بين الوجودين: وجود العربي ووجود الآخر: ثنائية الرواية الكبرى أمكن ملاحظة غياب تعادلية هذه الأقطاب؛ إذ يميل ميزانها غالبا لصالح الآخر؛ فإذا كانت البنى الثلاثة السابقة: تصادم الأيديولوجيا، وتحولات المكان، وتعارض القوميات أنساقا حيادية في ذاتها، فإن مخرجات حركة الثنائيات تحتها ستشير إلى تغلب ما هو سلبي دوما: تسلط المعتقد السلبي في النسق الأول، وتغلب الديتسوبي والقمعي في النسق الثاني، وانسداد أفق الحوار الحضاري في النسق الأخير.

وهذه التعادلية المفقودة تكشف عن أن البنية الحاكمة هنا تتركز في أزمة هوية ذات مستويين: مستوى قومي ظاهر، تجلي حسيا في تمزق آرابيا ومعنويا في غياب الوعي بالذات في التعالق الحيوي بالآخر، ومستوى فردي خفي يخص آدم في تذبذب علاقته بالطرفين معا وتشتت وجوده بينهما، فإذا كان اندماج آدم ووجوده ضمن الكيان الغربي قلقا فإن انتماءه إلى الكيان العربي بحسب الرواية أشد قلقا لا لذوبان هذا الكيان العربي وتآكله فقط بل للتيه النفسي كذلك المسيطر على ذات آدم.

إن الرواية تعيش عددا من الأزمات التي اتخذت طابعا أنطولوجيًّا؛ فثمة تيه نفسي من جراء وقوف الذات على الأعراف بشأن القنبلة، وثمة شعور قاس بالغربة ناشئ عن تذبذب الموقف من القومية، وثمة إذهاب لوجود العرق العربي كلية، وثمة محاولات من الآخر "للهيمنة" تجلت في استعلاء عنصري واغتصاب للأرض وانتهاك للإنسان واغتيال لإنسانيته.

والنسق البنيوي الذي يمكن أن يجمع إليه هذه الدوال مجتمعة هو نسق "الهوية". إن الرواية تعيش تحولات زمنية تنذر بأزمة هوية، وهي أزمة ذات بعدين: حسي تمثل في مشاهد القتل والتخريب اللذين استهدفا إبادة عرق ومحو حضارة، ومعنوي تمثل في قسوة لحظة الذوبان والتيه المضروب على العرب نتيجة انسحاقهم حسب الرواية بين مطرقة الإمبريالية وسندان الإرهاب.

أي أن مشكلة الهوية هنا ليست بمستوى الاستلاب والمسخ وحسب: هوية الانتماء، وإن كانت تلك بدايتها الراهنة؛ بل هي مشكلة وضع القومية العربية كلها على

المحك، مشكلة هوية آيلة إلى الزوال، وجنس لن يعود شيئا مذكورا: هوية الكينونة، وذلك هو المآل التنبئي الذي ينتظرها.

وهي قضية تتجلى في الرواية عبر عدد من المظاهر التي ارتبطت بالثنائيات السابقة ارتباط النتائج بالمقدمات. ويمكن تركيزها فيما يأتي: الغربة والاغتراب، المسخ، التيه، وسأذكرها ههنا متلبسا بحيادية تامة حسب رؤية كاتبها، تاركا اتخاذ الموقف بشأن الرؤية لسياق تال:

الغربة والاغتراب

تبدأ أزمة الغربة في مستوى أول بدءا من شعور الذات بانعدام قيمتها داخل بيئتها ووطنها؛ هي غربة داخل الوطن أولا[٢٧]. وهذا الشعور يبتدئه آدم في وقائع تسبق زمنا أحداث الرواية؛ حين تَخصَّص في هذا الفرع الحساس من الفيزياء، ولم يجد بعدها من وطنه إلا الإهمال:" قدم كل شهاداته وملفا ثقيلا للعمل في أي شيء قريب من تخصصه، لكنه لم يتلق شيئا. كل الإجابات كانت متشابهة: تخصصك لا يفيدنا.."[الرواية:١١٣]

بهذا الجواب السابق يهيمن شعور باللاجدوى، ويخنق الشعور بالإهمال الذات، فتحل لحظة الغربة قاسية، وسيبلغ الحضور الطاغي لهذه الغربة مداه حين تلجئ ظروف قاهرة الشخصية إلى تحول قاس؛ إذ يتحول عالم الفيزياء من العمل في المخابر إلى العمل في المخابز! "ظل ينتظر العمل في المخابر الكيميائية والفيزيائية... لكن في النهاية لم يبق أمامه إلا...العمل في المخبزة". [الرواية:١١٣]

وساعتئذ تكون الشخصية أهلا للوقوع فريسة الاستلاب الذي ينتظرها بما يمثل المستلِب من قيم مفقودة مضيَّعة ومستهان بها في بيئة الشخصية، وهنا يحل الاغتراب خارج الوطن بديلا للغربة داخله، فتهجر الشخصية وطنها، وحين يُكتب لها التقدم مستقبلا يكون الإحساس بفداحة ما خسرته العشيرة/الوطن؛ لكنه إحساس يقع متأخرا!

وتتخذ قضية الغربة مستوى أكبر خطرا وأعقد أزمة نتيجة الحدث الروائي الذي تناولته الرواية والظرف الحضاري الذي مرت به شخوصها؛ وذلك مستوى آخر من الغربة يضرب الشخصية حين يعاد آدم إلى وطنه قسرا سجينا بأميروبا؛ وحينئذ سينشأ الشعور بالغربة لا بمستوى الغربة بين أبناء العشيرة، بل بمستوى فقدان هذه العشيرة نتيجة الانتكاسة الحضارية التي فوجئ بها آدم، ومن ثم فإن الشعور بالغربة وافتقاد القومية يتفاقم.

وكأن الرواية تؤكد عبر هذين الطرفين: إهمال آرابيا دور آدم ومن كان مثله ثم ضياع آرابيا كلية تحت وطأة الرجعية وغياب الوعي، وبين هاتين اللحظتين الزمنيتين: خروج آدم عن آرابيا وعودته إليها- تؤكد ارتباط الكابوسي المنتظَر بالراهن المليء بالأخطاء.

المسخ

يمكن القول إن المسخ قد مورس على أهم مكونين في الرواية: الذات/آدم والمجتمع/آرابيا، وهو من أهم المعاول التي تآكلت بها هويتهما.

مسخ الإنسان:

لئن شاعت الرواية أن تكون مشكلة بروز في مسخ الإنسان الجسد فقد جعلته سببا في خلق مشكلة مسخ الإنسان القيمة. وهو يبدأها بعبارة "اللاست آرابيك" التي يختزل فيها آدم ويعبر من خلالها عن زوال جنس آرابيا، وينهيها بشعار "العربي الجيد العربي الميت"، مؤكدا حقيقة هذا الزوال ومحفزا على ضرورة هذا الإفناء لهم.

وتجرُّؤ بروز على هذه التسميات وإطلاق تلك الشعارات هو ناتج حتمي لتجرئه الأول على اغتصاب الأرض واستغلال ما فيها؛ إذ ما يمنعه مادام قد جاس في الأرض وانتهك الخصوصية أن يدوس هوية أصحابها.

ويسهم التنظيم بنصيب كبير في هذه الظاهرة، ذلك أنه قدم مسخا مركبا: معنويا بتصديره إسلاما مشوها، وحسيا بعمليات القتل والتخريب والإبادة التي قادها ضد عرقه بدعوى مخالفتهم عن أمره:" في آرابيا أو ما تبقى منها، محا التنظيم كل الماضي الإنساني نهائيا، فحطمت ألواح جلجامش أو ما تبقى منها، ومحيت المدن البابلية والرومانية وحتى الإسلامية، على مرأى من المجتمع الحر!" "[الرواية:٢٦٢]

على أن النصيب الأعظم في قضية المسخ ينهض به العرب أنفسهم؛ إنه مسخ انتكاسي، ردهم من معيشة التحضر إلى حياة البداوة والبربرية والتشرذم. وقد بدت بوادره منذ غفلتهم عن خطر ذوبان هويتهم وتآكل قوميتهم، وعدم تقديرهم ما تحت أيديهم حتى تبدد وبدد وجودهم في عالم يتربص بهم مثل هذه الدوائر؛ فكأن طوالع هذا المسخ تبدو في الوقت الراهن وتتجهز نواتجه الخبيثة في مستقبل تراه الرواية.

وسنرى أن "بروز" حين يضطر للاعتراف بهوية آدم فإن هذا لن يمثل استثناء هنا؛ لأنه كان اعترافا بهويته العلمية لا القومية. وحتى هذه الهوية العلمية نراها تتعرض للمسخ عقب تفعيل آدم مشروعه النووي، حتى إن رأيه لم يعد مأخوذا به بخصوصها من بعد، زيادة على تدابير اغتياله. لقد كان اعترافا مرتهنا بالافتقار إليه فحسب.

وقضية الافتقار هذه هي ما يعيدنا إلى الأزمة من جديد؛ لأن حدث الرواية– وإن لم يصرح بهذا– يستخلص منه شدة ارتباط أزمة الوعي بالذات بقضية الافتقار تلك؛ وهذه الأخيرة في بعدها الإيجابي المفقود تشير إلى أن افتقار الآخر إليك هو ما يمنح ذاتك وجودها ويصنع لها كيانها واحترامها، وهي في بعدها السلبي الحاصل تلمح إلى أن افتقارك الدائم إليه يمسخ الذات ويذيب الهوية.

مسخ المكان:

يسهم طمس المكان ذاته في تأكيد أزمة الهوية؛ فإذا فَقد المكان بالامتساخ والطمس دوره بالنسبة للذات فقدت الذات ركنا أصيلا من هويتها، إذ إن "الإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقية، جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته"(٢٨).

ومسخ معالم المكان في الرواية تم عبر تحولاته المشار إليها آنفا، حتى إن البيئة العربية ذاتها لم يعد يمكن التعرف على خصوصيتها وتبين معالمها، فهي تتعرض للطمر تحت الرمال وجفاف الأنهار ونضوب الماء. ولأن المكان سريعا ما يتخطى حضوره المادي إلى الثقافي والرمزي فإن الصلة بين المكان ومشاكل الهوية تبدو وثيقة،

وهي متجلية هنا عبر رمزية الطمس والطمر؛ إذ المطمور تحت الرمال إثر التحولات ليس المعالم الحسية فقط بل خصوصية المكان وفرادة الهوية وتبديد لماض ومسح لذاكرة، إن معالم المكان ذاته دليل إدانة باق يذكر بأزمة الهوية ويقرع أصحابها.

فإذا اقتربنا من خصوصية العربي الوحيد حديث الرواية وجدنا القلعة بما مثلت من أسوار حسية وحواجز معنوية مكانَه الذي لم يبرحه بطول الرواية بما يشير إلى هوية مقموعة. كما أن العزلة الواقفة بينه وبين آرابيا المكان تبدد كل شعور بالانتماء إليه، ومن ثم لم يمثل المكان له قضية وجود أو هوية تحقق. فالذات التي عاشت قلق المكان وعانت أزمة الاندماج فيه فقدت مركزية المكان، وحين يفقد المكان مركزيته تتبدد قدرته على منح الهوية وتزويدها بوقود الانتماء لتبقى. وذلك ما أوقع آدم في إشكالية انتمائه لآرابيا مكانا ووطنا، وللآرابيين أهلا وعشيرة.

التيه

لعل الناتج الحتمي الذي ينتظر ذاتا تعاني مشكلة الغربة وأزمة المسخ هو السقوط في التيه. ولفظ "التيه" وإن انصرفت دلالته إلى شعور معنوي فإنه ملتبس في الرواية بالمدلول المادي كذلك؛ الضياع داخل تخوم الأرض: الصحراء التي غابت معالمها فغدت تيها على تيه، والقلعة التي زادها بروز إعدادات صنعت منها متاهة تمكنه من مراقبة كل صغيرة وكبيرة فيها دون أن يطلع على تشوهه أحد من مقيميها. على أن الدال ينفتح على آفاق معنوية أخرى ويستغرق آدم فالقومية العربية.

وأول كيان يتعرض للتيه هو كيان آدم، الذي افتقد الجذور العربية، وافتقر إلى هوية يفاخر بها، وعانى لقب "الغيست واللاست آرابيك"، وعاين عبارة "العربي الجيد العربي الميت" شعارا وتطبيقا. فلا هو إلى العرب بيّن الانتماء ولا هو إلى الغرب يفخر بأن يكون بينهم. إن آدم فريسة متاهة معقدة، والقوميتان اللتان يقف بينهما ليستا بقادرتين على تخليصه منها: العربية لذهابها وزوالها، والغربية لتوحشها وقسوتها. والتنظيم المتربص بالاثنتين لا يمثل قومية لأنه لا يمثل غير ذاته وأهدافه هو:"وجدت نفسي على حافة عالم آرابيا الذي مات كليا، ولم تبق إلا علاماته القليلة وتمزقاته وحروبه، وعالم غربي في عز انهياراته بسبب أزماته البنيوية، وإسلام فقد كل مبرراته الإنسانية منذ أن استلمه التنظيم" [الرواية:٩٧، ٩٨]

وستتكرر لفظة التيه خلال مسارات الرواية يُحدث بها آدم نفسَه أو يحاور بها غيره :"ها أنا ذا أخرج الآن من دائرة الخوف، لأذهب نحو تيه جديد لا أعرف مآلاته.. عندما سألني– يقصد سميث– أين تريد أن تذهب، ترددت، لأني لم أعرف كيف أجيبه. فيَّ شيء من هذه الصحراء.. شوقي لبنسلفانيا كان كبيرا.. ماذا بقي لي فيها سوى الاستسلام للموت في العزلة في مستشفى مدني"/" شعر آدم كأن وضعيته لا تختلف عن محكوم عليه بالإعدام. ينتظر، في تيهه داخل هذا المكان، شيئا بلا هوية"/"لا يعرف وضعه بدقة، هل هو أسير جيء به من بعيد.. هل هو آدم الذي شاءت سلسلة من الصدف ..أن تجعل منه خبيرا آرابيا نوويا(...) أنا لا هذا ولا ذاك.. أنا غيست"

[الرواية:٤٢٧/٦٣/١٢٣/٢٨٩]، وسوف يزاد آدم إلى هذه الصفات صفة أخرى هي صفة "اللقيط" التي يعبر بها الكوربو عن آدم ويراه من خلالها.[راجع الرواية: ٢٣٣]

ومن جراء هذا سيلح سؤال المصير:" لمن ينتمي الذي أصبح بلا هوية؟ أنا اليوم بلا هوية لي وربما لا وجود لي، سوى أني أعرف انني من آرابيا، بلا أرض محددة"/ أنا نفسي لا أعرف أي وجهة أسلك؟" [الرواية:٣٢٥/٣٤٤]

ولا يتسلط سؤال المصير على ذات آدم وحده بل هو سؤال تواجه به الرواية الكيان العربي مواجهة قاسية؛ إذ ليس تيه آدم إلا مرحلة من تيه أكبر يضرب القومية الكبرى: "كيف يمكن لشعوب منحت البشرية العلم والخير والسعادة أن تتحول إلى كائنات غير مرغوب فيها؟ شعوب على حافة الانقراض"/"الآاربيون الذين كانوا يعيشون رخاء كبيرا أصبحوا اليوم داخل عواصف التيه ورمال النار والموت"[الرواية: ٣٤٣/ ١٦٥]

وآفة هذا التيه أنه بلا دليل:" الآرابيين كانوا تائهين في عمق الصحاري حاملين على ظهورهم أثقالهم وشقاءها..ينظرون صوب القلعة(...)سرعان ما يتوغلون في عمق الصحاري على مد البصر حتى تأكلهم الكثبان الرملية.. يمشون..لا دليل لهم..".[الرواية:٤١٢، ٤١٣]

غاية ذلك أن ثمة افتقادا للتعادلية واضحا في تعالق أقطاب الثنائيات السابقة؛ وهو يحيل إلى افتقاد للتعادلية داخل تكوين عرب آرابيا فيما أرى؛ بين الوعي بالذات تاريخها وحضارتها والتفطن لهيمنة الآخر، بين سرعة تعرية الذات من كبرياء زائفة

والارتكان إلى مشكلة تفوُّق الآخر وأزمات استهداف المنطقة، بين الانغلاق التام والانفتاح غير المقنن وتقليص المسافة الآمنة من الأخر التي تحفظ للأمة كيانها وخصوصيتها. ولأجل ذلك فهي تعادلية مفقودة في الموقف الداخلي قبل أن تتسلط على الموقف الخارجي بين العرب والآخر. وعبر الموقفين تتركب أزمة الهوية.

وإذن فالمأزق الرئيس أمام العرب/الهوية ليس مأزق الآخر بقدر ما هو مأزق الذات، هو مأزق وعي قبل أن يكون مأزق صراع مع الآخر. ولأجل ذلك تحل لحظات الإدانة خلال الرواية للعربي أكثر مما تتسع لإدانة بروز وغيره.

والمسكوت عنه من لومهم المتكرر خلال الرواية هو ضرورة الوعي بأن ثمة فعلين متعاقبين يصوغان العلاقة مع الآخر ويحفظان الهوية: فعل الوعي بحقيقة الذات وقيمتها وتاريخها، ثم فعل الاندماج مع الآخر.

وتعثر هذا الفهم في أي من هاتين المرحلتين يعوق قضية الاندماج الحضاري البناء ويمسخ الهوية. ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تتسلط العوامل الخارجية ممثلة في بطش الآخر على المكان والإنسان والحضارة فتمسخ هذا كله.

مبحث ثان: في الخطاب

لعل تلك التعادلية الغائبة التي كشفت عن أزمة هوية بمستوييها المعنوي والحسي وبمسببيها الداخلي/الوعي الذاتي والخارجي/فعل الآخر، تؤكد ضرورة مجاوزة بنى السطح هذه والنظر إلى حركة العمق لتأمل النسق الذي تمرره الرواية. ولأجل هذا كانت

هذه الوقفة على الرواية خطابا للبحث في أثرها الثقافي؛ وهو جزء أراه متمما لحديثي عن الرواية نصا.

والرواية بعامة نص ثقافي بقدر ما هي نص جمالي، والجيد منها هو ما يحمل رؤى كاشفة تقوم بخلخلة الأوساط الثقافية وغرس أنساق جديدة فيها أو تعميق أنساق أخرى كائنة؛ ونص واسيني هنا منطبق عليه هذا الحكم إلى حد كبير. وهو عمل كبير يكتسب أهميته الثقافية من اللحظة الزمنية التي يغامر فيها، وهي تخص المستقبل، ثم من استمداده الماضي ممثلا في الاستضاءة بسلفه أورويل، وتوازيه مع الحاضر باستغلال إرهاصات هذا الحاضر بلحظة المستقبل المعنية بها الرواية تحديدا.

ويعيش نص واسيني هنا معاني الانفتاح من حيث ينظر شطر المستقبل، وجلي أن لحظة المستقبل لا يحكمها عالم الشهادة ولا يخنق مخيالها عامل الزمن، وإن كان للحظتي الماضي والحاضر توجيهها بعض الشيء ومد رؤية المبدع بما يبتني على ضوئه لحظة المستقبل، إلا أنه يبقى نصا ينفتح على مستقبل غير معلوم قابل لأن يُعبَّأ بالتوقعات المختلفة باختلاف الرؤى.

وكتابة غير المعلوم مستقبلا ربما انجذبت إلى سوداوية كابوسية وربما بهرها ألق الأحلام اليوتوبية، ولا ريب أن الميل إلى أي من النسقين: اليوتوبي والديستوبي تسهم فيه ذاتية الكاتب وخصوصية رؤيته بقدر ما يسهم فيه راهن الكتابة الذي يعيشه ويرهص له بهذا الأفق المستقبلي أو ذاك.

١- النسق الإيجابي

١/١ خطاب التحذير:

لعل هذه هي أهم رسائل النص برغم أنها الرسالة التي لا تبين، هي الرسالة المشفرة، التي لم توضع شفرتها بفصول الرواية، بل في عبارة نصها الموازي: عتبة الرواية:

" أتمنى أن لا يحدث هذا.

مجرد صرخة قبل فوات الأوان. أعرف سلفا أن المعنيَّ بها لن يسمعها أبدا"[الرواية:٩]

إن المشار إليه عبر "هذا" في النقل السابق هو الواقع الكابوسي. وتسلط النفي عليه يرجو إزاحته وعدم وقوعه؛ على معنى أنَّ :"أتمنى حدوث غير هذا لهم من مستقبل يوتوبي" هو مسار منشود معارِض للمسار المتحقق داخل الرواية فعلا.

يشير ذلك إلى أن منطوق العتبة دال ذو مدلولين: حاضر وهو كابوسي، وغائب وهو تحذيري يُرغِّب في تغيير المسار أملا في إزاحة هذه الكابوسية وإحلال اليوتوبية محلها.

وذلك لا يصادر على أن المدلول الحاضر مدلول غالب؛ خاصة حين تستمر العبارة مؤكدة سطوته:" صرخة.. لن يسمعها أبدا"، ويُجرى ذلك على اليقين" أعرف سلفا" بما يؤسس لمعنى "تبدد الصرخة" المترتب عليه وقوع "هذا" حتما. غير أن نسق التحذير

الكامن تظل له إطلالته؛ عبر لحظة التدارك للموقف" قبل فوات الأوان"، التي تترك الباب مواربا لعودة محتملة، فيكون الإنذار بالسلبي باعث التحرك نحو الإيجابي.

كما أن إجراء الأمر على التمني يؤسس لدلالة أن هذا المصير وإن كان مستقبلا فإنه يبدأ من الراهن؛ ومن ثم يكون تمني نفي هذا المآل مستقبلا: "أتمنى أن لا يحدث.." أمرا ذا جدوى بشرط أن يكون ثمة تحرك في الوقت الراهن لإزاحة كابوسية المستقبل تلك؛ وهذا كله متماش مع نسق التحذير.

وُيكسِبُ تموضع هذا النص وتلك الأمنية داخل عتبة الرواية –وهي أحد أهم النصوص المحاذية للنص الأصلي– دلالةَ التحذير أهميتَها وحضورها؛ وهذا الحضور ناشئ عن حيوية المكان الذي وضع فيه النص وهو مدخل الرواية الذي يسمح لكل قارئ يمر عبره أن يصطحب معه البعد الدلالي الذي يؤسس له ويتنقل به عبر رحلة بناء المعنى حتى ختام الرواية(٢٩).

ولسوف يتأسس نسق التحذير بعد ذلك بطريقة غير مباشرة ويسري خلال محطات الرواية. إنه الصورة المستترة المقابلة للصورة الظاهرة، هو مبني بسبيل من فكرة التطهير بمعناها الأرسطي، حيث تبعث الرواية على القلق من المصير المنتظر وتزين أمر الارتداد إلى داخل الذات فردية وجمعية، وتلَمُّس نفق للخروج.

ويتبلور من ثم ههنا سؤالان يمسكان بمفاصل الرواية جميعا، ويضعهما خطاب الرواية ضمن نسق التحذير هذا ليُدين بهما العرب، يتسلط أولهما عن المستفيد من وراء المصير المتشتت والقطيعة الواقعة بين الكيانات العربية. والتساؤل الآخر وهو مصيري

كذلك، يرتبط بحدث الرواية الأبرز: سباق النووي؛ وهو: لماذا فشل العرب في الوجود ضمن خريطة النووي؟ إذا كانوا قد فشلوا مسبقا في نزعه من المنطقة كاملة بدءا من إسرائيل أو أزاريا بلفظ الرواية؟ كيف لم يظفروا بأي الخيارين؟ وهي أسئلة لا تطلب جوابا، بقدر ما هي مساءلات تفترض تغيير أوضاع أو حتى تحركا نحوه.

ولا تنجز الرواية سؤاليها هذين عبر المباشرة، بل تجعلهما خطابا ضمنيا يسائل العرب نخبة وشعوبا.

ويَعْقب التحذير بالمصير تحذيرات أخر؛ ولعل من أهمها لَفت العرب إلى عوامل الهدم الداخلي ذاتها التي ربما كانت أشد فتكا بجسد الأمة، نعني التنظيمات المنحرفة الهدامة، وعدم الاستهانة بكونها جماعات لا أنظمة سياسية، وضرورة الوعي بأن مثل هذه الحركات منبتة عن فكرة القومية كما هي منبتة عن المرجعية الدينية التي تدعيها.

تلفت الرواية النظر كذلك إلى نمط من أنماط الاستعمار لا يكتفي بالهيمنة الفكرية والاقتصادية فقط، ولا يقنع بحروب دموية على الأرض، بل يجمع بين المظهرين معا، ويطورهما كذلك إلى حروب إبادة تامة لأعراق وقوميات يراها منزوعة القيمة والدور في مقدرات العالم المستقبلية وفق تقديرهم.

٢/١ إعلاء قيمة الإنسانية:

ومن الرسائل الإيجابية الصغرى التي تُستشف من الرواية التأسيس لفكرة أن ما يبقى من المرء هو قيمته الإنسانية، ومحاولة الربط بين ذلك وبين قيام الحضارات. وهذه الرسالة تؤدى أداء إيجابيا عبر آدم من خلال معتركه الذاتي تجاه قضية النووي، ثم

عبر إيفا في إيثارها البقاء بين عرب السد بطول الرواية دون العودة إلى حياتها الخاصة بالسويد. لا يضير النسق أن ثمة إخفاقات كانت في الانتظار هناك وعرقلت المسار.

ثم تؤدَّى الرسالة أداء سلبيا عبر الكوربو وبروز اللذين كانت منهما الاغتيالات المتكررة لقضية الإنسانية سواء تمثلت حسيا في قتل وتدمير، أو معنويا في سادية وعنصرية، أو في الإشارة إلى خطر التقدم التكنولوجي حين يتجاوز الخطوط الحمراء فيقتحم خصوصيات الإنسان ويتخذه فأر تجارب، أو يُسخر البيئة لنزواته التكنولوجية ويغتال دون رحمة مقوماتها. وهو ما يدفع نهاية إلى ضرورة قراءة هذا التقدم التكنولوجي قراءة ناقدة لدوره[٣٠].

وسريان الرسالة عبر هذه المكونات السلبية يتم من حيث تُبغِّض الرواية هذا المسلك فتقدم بذلك برهانا آخر عكسيا على أن الخير في غير طريق هذه النماذج السلبية فيكون سلوك مسلك مغاير بديلا مطلوبا.

٣/١ التوجه نحو التكتل والاتحاد:

ولعل من الرسائل المرسلة بطريق غير مباشر كذلك تعظيم شأن التكتلات المبنية على شراكة في الدين أو اللغة أو العرق. وتلك رسالة إيجابية أنتجتها تبادلات الحضور والغياب داخل ثنائية التكتل والتمزق، وهي تبادلات عكسية؛ فحيثما برز حضور أي القطبين غاب الآخر، بما يحتم أن يكون بديل السعي نحو التكتل هو التفكك الحتمي والذوبان والتآكل.

يتجلى أمر التكتلات والأحلاف الجديدة داخل عالم الرواية في عدد من الفيدراليات أعلاها تحالف أمريكا وأوروبا المعبر عنه بأميروبا، ثم تحالف أيروشينا المكون من إيران وروسيا والصين، وهو تحالف مضاد للحلف الغربي، حين ستبقى أزاريا تكتلا وحدها مكتفية - كشأنها غالبا- أن تكون ربيبة التكتلات الكبرى دون أن تنخرط هي في تكتل بعينه أو ربما دون أن تُقبلَ بأي من هذه التكتلات.

والرواية في ذلك تقترب من نسق رواية أورويل التي اتسعت لثلاث فيدراليات كبرى كذلك: أوقيانيا، أوراسيا، أستاسيا.

ومن أسف أن يكون صاحب الحظ الإيجابي من هذه الثنائية هو الآخر غربيا كان أو شرقيا، في حين يبوء العرب من الثنائية بوجهها السلبي البغيض! حيث التمزق الذي كان تجليا للانتكاسة الحضارية وأهم مسبباتها في الوقت عينه.

وهو فارق بين المعسكرين كبير خاصة إذا نظر إلى القضية من منظور صراعات البقاء وإشكالات فهمه، وهو منوط هنا بحسب ما يفهم من الرواية بتفعيل فكرة البقاء للأقوى أو تعطيلها، وقد كان تعطيلها من نصيب المعسكر العربي إما جهلا أو تواطؤا أو وقوعا في توهم التناقض بين مبدئي البقاء للأقوى أو البقاء للأصلح؛ في حين أن فقه الواقع يؤكد" أن الخلاف القديم حول التوجه المثالي"البقاء للأصلح"، والتوجه الواقعي"البقاء للأقوى" لن يصبح بلا معنى فحسب، بل سوف يفرض الواقع حتمية التسليم - طوعا أو كرها- أن الأقوى هو الأصلح"[٣١].

وسيرتبط ذلك النسق بأحد سؤالي الرواية السابق بيانهما؛ لأنه يفتح المساءلة نحو المستفيد من بقاء هذا الوضع: سطوة الآخر، أم لاوعي الذات، أم هما معا.

١- النسق السلبي:

إذا كنا قد استخلصنا من عمل واسيني رسالة مهمة ذات دور إيجابي تمثلت في نسق التحذير من مصير آت لا محالة إذا لم تتغير أوضاع الحاضر، فإننا هنا بإزاء ما يمكن أن يشوب هذا النسق من شوائب ربما كان الباعث إليها في المقام الأول المبالغة في تشويه الصورة رغبة في التنفير منها وطلبا للتغيير.

١/٢ الديستوبيا والكابوسية: المبالغة وتأسيس النسق العكسي

تناولت رواية واسيني تحولات انتكاسية شديدة وفق رؤية بدت كابوسية بالغة السوداوية في رصد المصير مستقبلا. وعلى الرغم من رحابة النظرة لتستخلص من هذا نسق تحذير على ما أشرنا آنفا، فإنه لا يمكن التنصل من أننا بإزاء جرعة من المبالغة شديدة، وأن هذه المبالغة تلبست بآثار غير محمودة فيما أرى من نواح ثقافية تخص خطاب الرواية ودورها الذي تلعبه بالنسبة للتلقي المجتمعي والسياق الثقافي.

وليس من شك أن الكاتب يستعين بالجمالي لقراءة الواقع وإظهار فكره الخاص لقضاياه، وهو من منظور جمالي فني حرٌّ أن يؤسس لروايته واقعا يراه يخدم رؤيته الخاصة؛ لكن يظل هناك ما يشد هذه الرؤية الخاصة نحو الاتساق مع المنطق العام، وهذا الاتساق هو ما كسرته زيادة المبالغة في الآفاق الكابوسية التي تحلق فيها وقائع الرواية.

ولا يتعارض هذا مع ما سبق استحسانه من أن التحذير نسق إيجابي قد نشأ عن تلك المآلات المزرية المنتظرة؛ إذ المراد هنا الإشارة إلى أن زيادة جرعة الكابوسية عن الحد سيشكل نسقا ثقافيا سلبيا يسير عكس النسق الثقافي الإيجابي الذي ربما كان مراد الكاتب ابتداء.

١/١/٢ تجليات النسق

وقائع كابوسية:

إن الرواية تسيطر عليها أجواء افتقاد الأمل فيما هو عربي، وتقدم هذا الكيان الكبير– رغم إقرارنا بضعفه الظاهر حاضرا– بصورة الرعوية والبربرية التي لم تمر بها حضارة مطلقا، بل قدمته كذلك مستسلما مقيدا لا يملك أدنى مقاومة، وليس من سبيل إلى التماسها في قريب عاجل أو بعيد آجل!

بل إن فكرة تفوق "العربي" صاحبةَ البعد الإيجابي الوحيد في خضم هذه الأنفاق المسدودة تجاه آرابيا وحضارتها الذاهبة لا تفلح هي الأخرى في تبديد هذا الجو وتقديم انفراجة فيه؛ ذلك أنه عربي ملاحق دوما بوصف "الأخير" بدءا من عنوان الرواية، وهي صفة تئد الأمل وتبدد إيجابية لفظ "عربي" موصوفا به آدم صاحب نوبل في الفيزياء النووية.

وإذا كان مصير آدم هو الإنجاء نهاية فإن النجاة لم تكن إلا لآدم فردا، ثم هو في النهاية حين يهم بالعودة فإن العودة لم توظف ثيمة رامزة لعودة العرب وحضارتهم، بل كانت عودة منه إلى حياته بجامعة بنسلفانيا برفقة إيفا المرأة الأوروبية وابنته التي

نشأت نشأة يابانية. أما العرب فقد تركوا يلاقون حول مياه السد الملوثة وبنائه المتهدم مصير الإبادة غرقا وهدما وتشوها نوويا. ولعل زيادة جرعة المبالغة على النحو الذي أفنده الآن هي ما يقف وراء الاستعانة بمشهد سحري بنهاية الرواية طلبا لإنجاء آدم بعدما أحدقت الكابوسية بكل شيء ولم يهيأ له نفق للخروج. وهي التي لم تشذ عن الواقعية المنطقية التي تدون كل شيء حتى بالأرقام وتحرص على ذكره حتى بالثواني.[راجع الرواية:١٣، ٢٨، ٤١، ٢٧٤]

وإذا كانت قلعة أميروبا قد اختار لها قائدها مصير الهدم فإن حاميتي البحر الأحمر وهرمز بقيتا وستظلان باقيتين حسب الرواية، كما أن التنظيم وأزاريا باقيان يتوغلان كخلية سرطانية بجسد آرابيا.

وتوسع أزاريا/إسرائيل تحديدا في المنطقة ليس مناط إشكالية هنا؛ إذ هو أمر وارد نتيجة إرهاصات يجري بها الحاضر الراهن الآن؛ لكن الكاتب يهمل أن يكون ثمة كيان عربي واحد ولو كان كيانا قبليا أو إثنيا(ethnicity) ، يمثل تهديدا لها وعرقلة لتوسعاتها بالمنطقة، ولربما كانت مصر مرشحا بقوة للعب هذا الدور حتى مع السماح للرؤية الديستوبية أن تعمل ضد مصر عبر أخطار الرجعية والتخلف والاستلاب، خاصة أن الصراع العربي الإسرائيلي لم تزل مصر تلعبه بالمنطقة. ولسنا نطلب من الكاتب أن يقدم الكيان العربي المفقود الدور هنا، سواء كان مصر أو غيرها، بطلا يلعب دوره باقتدار ضد هيمنة إسرائيل. ولكن لا نتصور أن صراعا عقديا ممتد الجذور في الماضي ومتشعب الفروع في الحاضر مع غير كيان عربي ينقضي بهذا الصورة

المفزعة مع غياب تام لأي صوت عربي سواء كان صوت السادة، أو الساسة، أو الشعوب المعقود عليها الأمل غالبا حتى في أحلك الظروف.

آدم وإشكال البطولة الزائفة:

إذا كان مخترع البوكيت بومب عربيا، فإن هذه الحقيقة لم تُدخل على قارئ الرواية شعورا بالفخر داخل هذا الزحام الكابوسي المرير، وإن أوجدت نسمة إيجابية خاطفة. والرواية لا تتغنى ببطولة ما ولو كان في شخص آدم رغم تفرده بامتلاك تجربة البوكيت بومب، ورغم حصوله على نوبل. إن الرواية تُغيِّب دور البطل بالمفهوم الكلاسيكي له تماشيا مع الرؤية الكابوسية وتأكيدا لها، وآدم عربي ٢٠٨٤ وإن لم يستسلم فإنه لم يتحل بدور الفاعل، وجميع خصاله التي يتحرك بها في الرواية تحاصره في منطقة رمادية: فلا هو يثور ولا هو يستسلم، ولا هو حاسم في مشروعه النووي ولا هو متفائل به، وهو يلوم عشيرته دون أن يتمكن من تقديم شيء لهم.

والبطل بهذا الطرح ربما لا يعني قصورا في النواحي الجمالية للرواية؛ إذ هو مناسب لمقدار الرؤية التي يبتغيها الكاتب من روايته، وهي رؤية لا تنشد تغييرا حاصلا في واقع الرواية، مقتنعة بأن معطيات الواقع المعيش لا ترشح وجود نمط البطل الفاعل في تغيير المسار؛ وفي تعليل غياب هذا النمط أو تغييبه يرى واسيني أن " الحياة الاجتماعية بما فيها من علائق إنسانية وسياسية... أدى إلى غياب البطل الثوري المرتبط بالفعل العام وحضور الشخصية المرتبطة بما هو آني بكل ما يحمل هذا الآني من مصالح خاصة وذاتية"(٣٢).

غير أن آفة تقديم بطل من هذا النمط تتجلى من منظور الخطاب لا جماليات النص؛ فهي مضافة إلى المبالغة المشار إليها آنفا تعمق الكابوسية التي يبدو أنها تصر على غلق كل باب لوجود العرب مستقبلا. حتى باب ذلك العربي الأخير؛ إذ لم يفلح في عقد أمل على نهوض مرتجى بله أن يكون على يديه تغيير المسار، بل لا نعثر على صوت آدم في الرواية في موقع المطالب بالحق القومي، بقدر ما نرى صوته في مكان الإدانة لهم والنقد لمآلاتهم.

كما أن قضية إنجاء آدم وعودته بنهاية الرواية لا تستغل مشيرة إلى عودة العرق ذاته، أي أن الرواية لا تقدم استنباتا للعروبة من جديد عبر العربي الأخير. ثم تغلَق الرواية عند هذا الحد؛ وكأن الهدف العام لها كان إنقاذ آدم. إن نهاية الرواية لا تخِفُّ إلى تقديم أجوبة تشغل العقل العربي الذي طوفت به عبر تخوم مستقبل قوميته بقدر ما تتسع لإثارة الأسئلة حول الدور الذي مثله آدم، والقومية التي لامها، والأفق الذي ينتظر، وماذا بعد عودته إلى بنسلفانيا. وقد كان يظن القارئ أن نهاية الرواية ستقدم رؤية إيجابية على يد ذلك العربي حائز نوبل ولو على سبيل عقد الأمل عليه بوصفه العربي الأخير الواقف على مفرق زمنين ومرحلتين من عمر العرب.

الكابوسية وأثر أورويل:

وإذا كان يمكن الاعتذار عن ابتناء المستقبل الديستوبي بحضور الواقع الكابوسي الذي يحياه العرب اليوم، فإن انغلاق المشهد تماما دون بصيص أمل أحسب أن لأورويل ١٩٨٤ أثرا في أخذ واسيني إليه، وقد تمثل هذا الأثر على نحو أكثر من نواحي

الخطاب لا من نواحي جماليات البنية، أعني أن نص أورويل مارس أثره الثقافي على واسيني وروايته بحسبان الأول مرسلا والآخر متلقيا.

وقد كان طريق شخوص أورويل كابوسيا مسدود الآفاق، كما ضربت الرواية أعلى النماذج في أزمة الفرد من سلطوية فرضت على الناس عبودية للحزب بالمعنى الحرفي للكلمة وبلغت لقاء الوصول بأفراد أوقيانيا مجتمعِ الرواية إلى هذه المرحلة أن مسخت هوياتهم، وأضاعت إنسانيتهم، وأهانت خصوصياتهم، ومارست شتى أنواع العذاب الجسدي والنفسي، وظلت تلح على وعيهم حتى غُيِّبَ لصالح كلمات يرددها أفراد المجتمع ليل نهار تُسبح بحمد الحزب وتقدسه؛ حتى غدا أحدهم رقيب نفسه، لربما وشى بها إذا ما جال بخاطره مجرد التفكير في غير ما يكون لصالح الحزب ولو لم يكن هذا التفكير مما يضر بالحزب ابتداء!

وتتفق الروايتان في أن العالم القادم عالم تكتلات فيدرالية، وأن منطقة الشرق الأوسط بعيدة كل البعد عن إبرام مثل هذه التكتلات؛ وعرب١٩٨٤ – أو منطقة الشرق الأوسط بتعبير أورويل– غائبون غيابا معنويا، مهمشون لا وزن لهم بين أمم العالم، ولن يحضروا في رؤية أورويل إلا طريدة الكيانات الثلاثة: أوقيانيا، أستاسيا، أوراسيا. وهذه الأنفاق المسدودة عينها هي ما نطالعه برواية واسيني، وسنرى أن عرب ٢٠٨٤ غائبون كذلك؛ لكنه غياب بمستوييه المعنوي القيمي والحسي الوجودي.

كما أن فكرة العربي الأخير والجنس الآيل للانقراض نرى نظائر لها كذلك لدى أورويل بتعبير "الإنسان الأخير" و"الجنس البشري الآيل للانقراض. [راجع ١٩٨٤:

٢٨٢] ، وهي من الأفكار المتداولة بشأن سؤال المصير، وقد شغلت حيزا كبيرا من فلسفة "فرانسيس فوكوياما"، وإن كانت لا تخلو من رسائلها الثقافية المضمرة المؤسِّسة لهيمنة الغرب الأمريكي(٣٣).

على أن آدم بطل ٢٠٨٤ يزيد على ونستون بطل ١٩٨٤، فعلى الرغم من الامتيازات الشخصية التي حظي بها آدم مقابل المسخ الإنساني الذي كان من نصيب ونستون فإن كابوسية آدم تزيد من زاوية عقد الأمل على التغيير؛ فلقد ظل ونستون يردد كثيرا :" إن كان ثمة أمل، فهو في عامة الناس".[راجع ١٩٨٤: ٩١]، وهو يترك هذا الأمل صدى في آذان القراء برغم مصيره السوداوي الذي لاحقه نهاية.

ويبدو أن واقع أربعينيات أورويل كان يحمله على التنبؤ بتضخم الاشتراكية، كما أن يقينه بتملك الدولة البوليسية كان أثرا من آثار معاصرته الحربين العالميتين؛ على أن الواقع جرى بعد ذلك بأن خريطة أوروبا الاجتماعية والسياسية ابتعدت عما أسست له روايته مسافة آمنة من توقعاته الكابوسية بشأنها في المجمل العام. في حين مثل واقع واسيني هيمنة لليرالية غربية واحدة، بعد ذهاب قوة الشرق بتفكك السوفييت وتآكل الاشتراكية تباعا واختلال ميزان القوى الكبرى؛ غير أن هذا لا ينهض مبررا لخط مصير المنطقة بهذا الرؤية.

٢/١/٢ خطاب النسق السلبي

هل نقول من جراء ذلك إن ثمة ترسيخا غير مباشر لشيء من الاستسلام؟ هل تقول الرواية إنه بات حتما علينا تقبل ذلك؟

هنا في رأيي يكمن خطر المبالغة في سوداوية التحذير؛ من أنها ربما حملت إلى المتلقي رسائل أخرى ثقافية عكسية؛ أعني تأسيس خطاب الاستنامة والانهزام الذي ربما كان ضربا من الاستلاب الناعم؛ وتلك رسائل ستكون مقبولة لدى المتلقي وستجد في داخله صدى لأثرها الثقافي لأنه لا يعيش واقعا عربيا مشرفا.

ولا ينبغي أن يُلتبَسَ على هذا بأن تقدم الآخر واقع لا مفر منه ولا مبالغة فيه وأن الواقع العربي مأزوم حقا؛ ونحن لا نبتغي بحديثنا هذا قلب حقائق واقعية وصولا إلى إزاحة فكرة الاستسلام تلك؛ ولا نعني رفض الإقرار للآخر بتفوقه- وإن كان ينبغي أن توضع قضية الرفض هذه محل نظر وجدل أيضا حين يفهم منها التقدم الفطري للآخر مقابل التخلف الفطري لنا- بل المراد هنا خطر الإقرار بضعفنا المحبط الهابط بنا إلى قرار لا قيام منه؛ ذلك هو المرفوض؛ لأنه زيادة على جرعة الإحباط التي يحملها يسير ضد قضية الهوية، لأنه ينسف أهم ركن فيها: الوعي بقيمة الذات(٣٤). وهو مرفوض تؤسس له رواية واسيني بوقائعها الديستوبية ورؤيتها الكابوسية؛ وفرق كبير بين ضعف ينال الأمة يرجى العودة منه وعجز تام لا قيامة منه أبدا. وهذه كلها خطابات تؤدي إلى خلق روح من عدم الثقة والترحيب بالانتظار السلبي ربما لحدوث معجزة أو حتى انتظار قيام الساعة! وهي بهذا تخدم الفكر الكولونيالي وتزيد من سرعة هيمنته على العقول والثقافة والأرض.

وأرى أن في هذه الرسالة حيفا واقعا على الشعوب من ناحيتين: الأولى من حيث إنها تلغي دور الشعوب، وهذا إلغاء ليس في محله أو ليس بالإطلاق الذي بنيت عليه

الرواية، فإذا كنا نسلم بأن ثمة سوء تقدير وسوء إدارة يمارسان من قبل العرب لما تحت أيديهم ولعلاقاتهم بمن حولهم، فإن هذا ربما مس صانعي القرار في المقام الأول والسادة والساسة، وهؤلاء ليسوا السواد الأعظم الذي يمثل الشعوب في المقام الأول.

ورغم تسليمنا أن طائفة كبيرة من الشعوب تتسلل إليها الانتكاسة ذاتها ويصيبها ما يصيب الساسة والسادة من صراعات فإننا نقرر خلف إدوارد سعيد أن ثقافة المقاومة كانت موجودة دوما؛ إذ " لم تكن الحال أبدا أن المواجهة الإمبريالية نصبت دخيلا غريبا نشيطا في مجابهة مع مواطن أصلاني غير غربي خامل خانع؛ بل لقد كان ثمة دائما شكل ما من المقاومة الناشطة، ولقد حدث، في القدر الأعظم من الحالات، أن آلت هذه المقاومة في نهاية المطاف إلى الغلبة والفوز "[٣٥].

ومن ثم أرى أن إلغاء دور الشعوب وتهميشه على هذا النحو هو عدم تقدير لحقيقة قوة الشعوب وحيوية الدور الذي يقومون به حين يتصدرون هم المشهد.

ثم إن هذا الخطاب يمثل، وذلك ثاني الخطرين وأهمهما، خطرا على الشعوب حين تنفذ منه رسالة مؤداها أن هذا هو واقع ومسار حتميان: انتكاسة تامة وخروج كامل من المشهد ولا أفق للتغيير، وبذلك تسهم مثل هذه النصوص في إيقاع المتلقي فريسة مشكلة الهيمنة hegemony بمفهوم جرامشي Antonio Gramsci حيث " تصبح الطبقات الأخرى حال قبول تلك الثقافة، متواطئة في قمع ذاتها، وتكون النتيجة ضربا من الهيمنة الناعمة"[٣٦] وبذلك يتأكد أن" السيطرة لا تتم بسبب قوة المسيطر فحسب ولكنها أيضا تتمكن منا بسبب مقدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلم بوجاهتها"[٣٧].

وسيعظم خطر هذه الصورة المفزعة حين تتراكم على محورها خطابات تؤدي الدور نفسه.

إن هذا الجو من الاستسلام مفضٍ لا ريب إلى الاستنامة ومطيل سنوات الغفلة ويسد كل مسلك إلى الاستيقاظ. وستتركب الآفة وتعظم المشكلة حين تخرج أجيال تقنع من جراء ذلك بأن أمة بهذه الضعة تستأهل ما يفعل بها عدوها، على نحو ما تصدر الرواية خذلان آرابيا المستأهل لفعال أميروبا بها، وتنشأ هذه الأجيال على الشعور باللاجدوى من التغيير، فتفتقر إلى الأمل، أو تتبرأ من الأصل والثوابت، وتنسلخ من كل ما تراه عربيا حتى من الدين، أو تطلب الهجرة، وتقع فريسة الاستلاب للآخر؛ فالنهاية باتت معروفة! وخطر هذا الأمر في أنه يخدم أهداف الآخر ويسرع من مخططاته في المنطقة بأكثر مما كان مخططا له من قِبَلِه.

يشبه هذا تلك الرسائل الثقافية التي ترسل بها مؤسسة هوليود عبر "أفلام البوليسية والأكشن" الجديدة التي أسست وتؤسس على مدار عقود لثقافة الرجل الخارق الذي لا قبل لأعداء أمريكا به، وصدرت ثقافيا عجز أية مؤسسة أخرى مهما بلغت مقابل ما تتمتع به مؤسسات أمريكا من فهم واستباق غير بشريين بالمرة، وأن القيامة باتت وشيكة ولا ضرورة من صراع الحياة في هذه الأوقات المتبقية.. وغير ذلك من مزالق التفتت إليها دراسات ما بعد الكولنيالية Postcolonial studies. حتى باتت مثل هذه الرسائل تُتلقى وكأنها أمر مسلم به، وتفاقمت بذلك عقدة الآخر وتركبت معه

عُقَد الاستلاب وانتشر بوجودها الانسلاخ والمروق مما يمت للعرب بصلة، تحت مسميات العلمنة والردة وغيرها(٣٨).

الخاتمة

يمكن تركيز خاتمة الدراسة في عدد من النقاط فيما يأتي:

١- حيوية دراسة الخطاب: قران النص بالخطاب خلال هذه المقاربة لم يكن فقط سعيا إلى تعزيز الاستراتيجية البنيوية الظاهرة: الثنائيات؛ بقدر ما كان أمرا رغَّبَتْ فيه حيوية القضية التي يتناولها النص من منظورها الثقافي، وكونه مناط اهتمام- بل وترقب- في ظل توترات الراهن وقلق المستقبل. ومن هنا، أرى ضرورة التأكيد على أن تَتخذ دراسات الخطاب خاصة بوعي نقاد ينتمون إلى فهم لصيق برؤى ما بعد الكولونيالية: جرامشي وهومي بابا وسعيد موقعا حيويا في قراءة أنساق مثل هذه الأعمال وغيرها، دون إقصاء للظاهر من جمالياتها في الوقت عينه.

٢- استشراف المستقبل سبيل إلى إدانة الراهن: رغم أن نص واسيني يؤثر المغامرة في المستقبل فإنه لا يخفى أنه يوظف ذلك لإدانة الراهن أولا ودق جرس الإنذار قبل فوات أوانه. ومغامرته المستقبلية بعامة هي نابعة في المقام الأول عن تحمل رؤية تجاه المستقبل وقلق تجاه المصير، دون أن ننفي عنها تمتعها بترف النظر إلى تجارب أخرى لا سيما تجربة أورويل الرائدة ومحاولة التوازي معها وإثبات القدم إلى جوارها.

٣- المتلقي ونص الاستشراف: يمكن القول إن المغامرة بالمتلقي داخل تخوم المستقبل كانت ذات أثرين: أولهما تحذيري وذلك نسق بيِّنٌ، والآخر استشفائي، وهو واقع على ملء هذا البعد لدى متلقي اليوم الذي غدا سؤال المصير سؤالا ملحا على ذهنه يهجم عليه عبر وسائل الميديا الحديثة ليل نهار ويتعزز بافتقاد الكيانات العربية غالبا للحظات الاستقرار، وتلاحق التحولات عليها.

٤- المسكوت عنه في أزمة الهوية يكمن في أن نقد الذات هو استراتيجية الحوار الحضاري، وذلك قبل إلقاء اللوم على الآخر ودوره الهدام، إذ تقتضي قضية التصارع مع الآخر مرحلتين: مرحلة الوعي بالذات وفعلُها يتجه نحو الداخل، ثم مرحلة الإنجاز وفعلها يتجه نحو الآخر بحواره أو حتى مصارعته، بما ينأى عن الاستلاب ويرفض الانغلاق في الوقت عينه.

٥- الكابوسية باب لبناء النسق السلبي: تؤكد مقاربة الرواية على ضرورة أن يعي الكتاب المعنيون بمثل هذه النزعات في الكتابة خطر المبالغة في إنتاج أنساق كابوسية بهدف بلوغ الأثر؛ فبرغم أن الكاتب قد نجح في صنع واقع روائي انفتح به على آفاق مستقبلية، بثها ضمن رسالة تحذيرية، لكن مزلقا خطرا كان بانتظار هذه الرسالة حين زادت جرعة المبالغة في السوداوية وانغلق معها كل أفق يمكن الخروج منه إلى حد أصبح يخشى معه من سير الرسالة في مسار يعاكس ما هدفت إليه رسالة التحذير. ومثل هذه الأنساق في رأيي هي مما يعطل ثقافة المقاومة التي تلعب دور رد فعل الشعوب تجاه الهيمنة.

هوامش البحث:

(١) يشغل التوازي Parallelism حيزا من الفكر الألسني وُيقدَّم نسقا من أنساق اللغة وأداة من أدوات الوقوف على هندسة البيت الشعري بما أن الشعر يبنى ابتداء على بنى صوتية وأدوات تطريزية متوازية، ويراه ياكوبسون صالحا لتحليل أنماط من النثر الأدبي كذلك. للوقوف على قيمة التوازي من زاوية ألسنية يراجع: رومان جاكوبسون، (١٩٨٨)، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنون، ط١، المغرب، توبقال للنشر، ص ١٠٤، وما بعدها

(٢) د. جميل صليبا(١٩٨٢)، المعجم الفلسفي، لبنان، دار الكتاب اللبناني، ج١، باب الثاء، ص ٣٧٩. وراجع أيضا مصطلح Analogue oppositions خلال دانيال تشاندلر، (٢٠٠٢)، معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات، تر: د. شاكر عبد الحميد، القاهرة، أكاديمية الفنون، ص١٩

(٣) للوقوف على احتفاء الفكر الألسني لا سيما لدى جاكوبسون بمحور الثنائيات ضدية وغير ضدية يمكن الرجوع إلى: فاطمة الطبال بركة، (١٩٩٣)، النظرية الألسنية عند رومان ياكوبسون، ط١، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص٣٤

٤) Edward Quinn, Dictionary of Literary and Thematic Terms, second edition, Facts On File, p53.

(٥) د. محمد عناني، (٢٠٠٣)، المصطلحات الأدبية الحديثة، ط٣، القاهرة، لونجمان، ص ١٠٢

(٦) انظر في ذلك على سبيل المثال: محمد الناصر العجيمي، (١٩٩١) في الخطاب السردي"نظرية قريماس"، تونس، الدار العربي للكتاب، ص ٩٣.

(٧) الجاحظ، الحيوان، (١٩٦٥) بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، ط٢، ج١، ص٢٦

(٨) سبقت دكتورة سمر الديوب إلى الاستشهاد بنص الجاحظ السابق خلال دراستها الثنائيات الضدية في الشعر القديم، وإن لم يكن في الدلالة ذاتها. انظر: سمر الديوب، (٢٠٠٩)، الثنائيات الضدية، دراسات في الشعر العربي القديم، سوريا، الهيئة العامة السورية للكتاب، ص٦

(٩) برونوين ماتن وفليزيتاس رينجهام، (٢٠٠٨)، معجم مصطلحات السيميوطيقا، تر: عابد خازندار، المركز القومي للترجمة، ص٢٩

(١٠) جون كوين، اللغة العليا(٢٠٠٠)، تر د. أحمد درويش، ط٢، المجلس الأعلى للثقافة، ص١٨٤

(١١) يراجع في فكر ميشيل فوكو كتابه: حفريات المعرفة(١٩٨٧)، تر: سالم يفوت، ط٢، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص ١٠٨، وراجع أيضا: د. الزواوي بغورة، (٢٠٠٠م)، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة. وفي فكر إدوارد سعيد يراجع كتاباه: الاستشراق، (٢٠٠٦) تر: محمد عناني، ط١، رؤية للنشر والتوزيع، والثقافة والإمبريالية(٢٠١٤)، تر: كمال أبو ديب، ط٤، دار الآداب؛ وهما حلقتان تكمل إحداهما الأخرى. وفي جهاز الغذامي الاصطلاحي راجع كتابه: النقد الثقافي، (٢٠١٠)، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الفصل الثاني كاملا.

(١٢) يراجع في تتبع مصطلحي "خطاب و نص": د. سعيد يقطين، (١٩٩٧)، تحليل الخطاب الروائي، ط٣، المركز الثقافي العربي، الفصل الأول، وله أيضا: انفتاح النص الروائي، (٢٠٠١)، ط٢، المغرب، المركز الثقافي العربي، الفصل الأول. وكذا لدى شارودو ومنغنو، (٢٠٠٨)، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، تونس، دار سيناترا، ص ١٨٠. و د. مختار الفجاري، (١٤٥٣هـ)، مفهوم الخطاب بين مرجعه الأصلي الغربي وتأصيله في اللغة العربية، بحث بمجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، ع ٣.

(١٣) د. الغذامي، (٢٠٠٤)، د. عبد النبي أصطيف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، دمشق، دار الفكر، ص٢٩.

(١٤) انظر على سبيل المثال: د. يوسف عليمات، (٢٠٠٤)، جماليات التحليل الثقافي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٢

(١٥) يمكن متابعة مواضع أخرى جاءت بهذا التوتر النفسي عبر صفحات: ٢٣٦، ٢٧٠، ٣٢٧، ٣٤٠

(١٦) سهيل فرح، (١٩٩٤)، الخطاب الدوغمائي ورفض الآخر، بحث بمجلة معهد إنماء العربي، مج١٥، ع٧٦، ص٦٢

(١٧) العبارة للأستاذ محمد حسنين هيكل، (٢٠٠٣م)، انظر كتابه: كلام في السياسة، عام من الأزمات، ط٤، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، ص٢٠٤.

(١٨) للإحاطة بشيء من ثنائيات المكان راجع: لوتمان، (١٩٨٨)، مشكلة المكان الفني، ضمن كتاب جماليات المكان، يوري لوتمان وآخرون، ط٢، عيون المقالات للطباعة، الدار البيضاء، ص٦٨

(١٩) د. سيزا قاسم، جماليات المكان" مشكلة المكان الفني"، (مرجع سابق)، ص٦٢

(٢٠) جاستون باشلار، (١٩٨٤)، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط٢، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت،، ص ٨٨ وما بعدها.

(٢١) د. سيزا قاسم، تقديمها لمبحث لوتمان" مشكلة المكان الفني"، جماليات المكان(مرجع سابق)، ص٦٢

(٢٢) يتابع مصطلح العرق والعرقيةracisme عبر أندريه لالاند، (٢٠٠١م)، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، ط٢، منشورات عويدات، مج٢، ص ١١٥٨.

(٢٣) راجع رواية أورويل، (٢٠١٤)، ١٩٨٤، ط١، دار التنوير، ص ١٩٦.

(٢٤) راجع سامي خشبة، (١٩٩٧م)، مصطلحات فكرية، مكتبة الأسرة، ص ١٥٩.

(٢٥) والسادية صاحبة حظ وفير في رواية أورويل إلى حد إرعاب المتلقي من المصير الذي يلقاه من يُظن فيه أنه فكر في غير موالاة الحزب أو لم يهتف بحياة الأخ الأكبر"بيج بروذر". وتتابعها رواية واسيني هنا وإن لم تكن بالنصيب ذاته.

(٢٦) راجع في هذا الصدد د. عمرو موسى، (١٩١٧)، كتابيه، الكتاب الأول: النشأة وسنوات الدبلوماسية، الفصل التاسع" ملاحقة البرنامج النووي الإسرائيلي"، ط١، دار الشروق، ص٣٠٩.

(٢٧) يبدو أن الغربة ثيمة لدى واسيني في كتاباته. تابع: خالد العارف، (٢٠١٥)، الفضاء الثالث عند واسيني، بحث بمجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، مج٤، ع١٤، ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢٨) سيزا قاسم، جماليات المكان(مرجع سابق)، ص٦٣، وانظر كذلك: د. حسن نجمي، (٢٠٠٠)، شعرية الفضاء، ط١، المركز الثقافي العربي، ص٣٢.

(٢٩) راجع: عبد الحق بلعابد، (٢٠٠٨)، عتبات، جيرار جينيت من النص إلى المناص، ط١، منشورات الاختلاف، ص١٠٩.

(٣٠) يمكن التزود في هذا السياق بما ذكرته عزيزة بدر، (٢٠١٣- ٢٠١٤)، تحت عنوان: التكنولوجيا والإيكولوجيا واغتصاب الطبيعة، مج فصول، العددان ٨٧، ٨٨، ص١٣

(٣١) د. صلاح رزق، (٢٠١٥)، الشعر وقضية الهوية، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٣

(٣٢) واسيني الأعرج، (١٩٨٧م)، انهيار مشروع البطل الثوري في رواية رصيف الأزهار لا يجيب لمالك حداد، بحث بمجلة الموقف الأدبي، مج١٦، ع١٩١، ١٩٢، ص ٦٧.

(٣٣) يراجع على سبيل المثال: فرانسيس فوكوياما، (١٩٩٣م)، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، تر: د. فؤاد شاهين، ود. جميل قاسم، ورضا الشايبي ومراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، "مقدمة الكتاب خاصة".

(٣٤) انظر في مفهوم الهوية وأركانها: بسمة عبد العزيز، (٢٠١٣- ٢٠١٤)، أرق الهوية، فصول، ع٨٧، ٨٨، ص ٧٥.

(٣٥) إدوارد سعيد، (٢٠١٤)، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، ط٤، دار الآداب، ٥٧.

(٣٦) هانز بيرتنز، (٢٠١٣- ٢٠١٤)، النقد والنظرية ما بعد الكولونيالية، تر: عمرو زكريا، مراجعة: سيزا قاسم، فصول، ع٨٧، ٨٨، ص ٢٢٣

(٣٧) الغذامي، النقد الثقافي، ٢١

(٣٨) يحسن الاستئناس في هذا السياق بدراسة د. حسام نايل، (٢٠١٠)، الاستعراض في الحياة الأمريكية، واقعية الوهم وتصنيع الحقائق، بحث بمجلة فيلادلفيا الثقافية، الأردن، ع ٧.